

الفنون النثرية

ازدهر النثر الفني في هذا العصر، وتعددت فنونه، فأنشأ الخطباء الخطب البليغة، وكتب الناثرون في فنون السيرة، والحكاية والأقصوصة، والنامة، والمقامة، والرسائل الديوانية والأدبية والإخوانية، وفي النثر التأليفي، وغير ذلك.

الخطابة:

هي - كما يقول الحوفي - « فن مشافهة الجمهور، وإقناعه واستمالاته »^(١). وقد عرف العرب الخطابة منذ أقدم العصور، ونبغ فيهم خطباء مشهورون، وازدهرت الخطابة في هذا العصر بسبب الحروب الطاحنة التي خاض المسلمون غمارها ضد الفرنج، فأخذ الخطباء يلقون خطبهم على الناس في المساجد في أيام الجمع والأعياد والمناسبات الدينية، وعند اشتداد المعارك والأخطار، لاستنهاض هممهم، وحضهم على الجهاد، وبذل النفس والنفيس في سبيل نصره دينهم، والدفاع عن أرضهم ومقدساتهم وأعراضهم.

كما أخذ القادة يلقون على المجاهدين خطباً تحضهم على الاستبسال في القتال، والترغيب في التضحية بنفوسهم في سبيل إعلاء كلمة الله، ولنيل إحدى الحسينين: النصر أو الشهادة. ولكن المصادر التاريخية والأدبية التي بين أيدينا لم تورد إلا القليل من تلك الخطب، ولعل ذلك يعود إلى ضياع كثير من المصادر التي تضمنتها، وإلى أن المؤرخين ومؤرخي الأدب لم يدونوا كثيراً من هذه الخطب لكونها - غالباً - نثراً شفهيّاً ينقى ارتجالاً.

وقد اشتهر في هذا العصر عدد كبير من الخطباء والوعاظ، منهم أبناء العديم الذين ولي عدد منهم قضاء حلب وخطابتها^(٢)، وأبو البركات بن الخطيب هاشم خطيب حلب الذي نقل إليه صلاح الدين الخطابة من بني العديم في سنة ٥٧٩هـ^(٣). وشمس الدين محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي

(١) أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة: ص ٥.

(٢) باقوت: معجم الأدباء: ج ١٦: ص ٥٧-٥٨.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ٤٧.

وهو أول من خطب بمصر لبني العباس في عهد صلاح الدين، وقد بلغ عنده مكانة سامية، وكان مقصد الشعراء ومحط آمالهم^(١)، والحسن بن الخطير (- ٥٩٨ هـ) «وله خطب وفصول وعظية مشحونة بغريب اللغة وحواشيها»^(٢)، وابن زكي الدين الدمشقي صاحب خطبة فتح بيت المقدس، وابن نجا الدمشقي (- ٥٩٩ هـ)^(٣)، ويحيى بن معط الزواوي (- ٦٢٨ هـ)^(٤) والقاسم بن القاسم الواسطي (- ٦٢٦ هـ)^(٥) وسبط ابن الجوزي، وكمال الدين بن العديم (- ٦٦٠ هـ)، وهو أول حنفي خطب بجامع الحاكم، ثم خطب بجامع دمشق^(٦)، وعز الدين بن عبد السلام (- ٦٦٠ هـ).

وقد كثرت في هذا العصر بصورة خاصة الخطب الحربية، والخطب الدينية.

الخطب الحربية: هي الخطب التي كان يلقيها السلطان أو القائد على أمراء الجيش في المجالس الحربية، أو يلقيها القائد على جنوده، لإثارة الحماسة في نفوسهم، ولحثهم على مواجهة الأعداء بكل بسالة وقوة، لتحقيق النصر عليهم، ولحماية أرواح المسلمين، وأموالهم وأوطانهم ومقدساتهم منهم، ومن أمثلة هذه الخطب، الخطبة التي ألقاها صلاح الدين الأيوبي في أمراء جيشه، وأصحاب المشورة فيه، بعد المصاف الأعظم على عكا، حيث قال: «بسم الله، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا،

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج ٥: ص ٣٤٣. وأبو شامة المقدسي: الروضتين: ج ١: ق ٢: ص ٤٩٢.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء: ج ٨: ص ١٠٠-١٠٨.

(٣) المصدر السابق: ج ٨: ص ١٠٨.

(٤) أبو شامة المقدسي: ذيل الروضتين: ص ٣٤-٣٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج ٦: ص ١٨٣.

(٥) السيوطي: بغية الوعاة: ج ٢: ص ٣٤٤، ومعجم الأدباء: ج ٢٠: ص ٣٥-٣٦.

(٦) ياقوت: معجم الأدباء: ج ١٦: ص ٢٩٧.

(٧) أبو شامة المقدسي: ذيل الروضتين: ص ٢١٧، وابن شاکر: فوات الوفيات: ج ٣: ص ١٢٦-١٢٩،

وإبن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج ٧: ص ٧٢، ٢٠٤-٢٠٥، ٢٠٨-٢٠٩.

قد نزل في بلدنا، وقد وطئ أرض الإسلام، وقد لاحت لوائح النصره عليه - إن شاء الله تعالى - وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولا بُدَّ من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل، وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجرتهم، فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك»^(١).

وخطبته في أمراء جيشه عندما توجه الفرغ مرة أخرى لاحتلال القدس من المسلمين سنة ٥٨٣ هـ فقال: «الحمد لله، والصلاة على رسول الله، اعلّموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذرائعهم معلقة في ذمكم، فإن هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم، فإن لويتم أعنتكم - والعياذ بالله - طوى البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا، وأكلتم مال بيت المال، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم»^(٢).

وكما رأينا، فإن هذه الخطب كانت تلقى ارتجالاً في الظروف الحربية الطارئة، لذا فقد امتازت بالإيجاز، فهي تبدأ بالبسملة، وبحمد الله، والصلاة على نبيه، أو بحمد الله، والصلاة على نبيه فقط، ثم ينتقل الخطيب إلى الموضوع الرئيس، ويمتاز أسلوبها بالوضوح والبساطة والبعد عن التعقيد والصنعة البديعية.

وأما الخطب الدينية: فهي الخطب التي تلقى في أيام الجمع والأعياد، والمناسبات الدينية، وأشهرها خطب الجمع، وهي تتكون من خطبتين:

الأولى: تتكون - غالباً - من مقدمة وعرض، ففي المقدمة: يستهل الخطيب خطبته بحمد الله والثناء عليه، ثم الصلاة على نبيه وآله وصحبه، ومن تبعه

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص ١١٤.

(٢) المصدر السابق: النوادر السلطانية: ص ٢١٦.

بإحسان إلى يوم الدين، ثم ينتقل إلى الحديث عن الموضوع الرئيس، وعندما ينتهي عرضه لهذا الموضوع، يجلس قليلاً، ثم يقوم لإلقاء خطبته الثانية: فيدعو فيها للخليفة أولاً ثم للسلطان أو الملك، ثم لسائر المسلمين وتعتبر الخطبة الثانية خاتمة للخطبة الأولى. وعلى الرغم من كثرة الخطب الدينية التي ألقى في هذا العصر لم يصلنا منها سوى الخطبة التي ألقاها القاضي محيي الدين بن زكي الدين بناء على أمر صلاح الدين في أول جمعة خطب بها في بيت المقدس بعد الفتح سنة ٥٨٣هـ، وهي خطبة طويلة وبلغية^(١)، فعندما رقي المنبر قرأ سورة الفاتحة، ثم استهل خطبته بالابتهاج بقطع دابر الأعداء الظالمين، ثم حمد الله - تعالى - على نعمه بعامه، وعلى إعزازه للإسلام والمسلمين بخاصة، فقال: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين﴾^(٢). ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾^(٣)، ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيراً﴾^(٤).

ثم ذكر الشهادتين، وأثنى على النبي (ﷺ) وعلى خلفائه الراشدين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

وانتقل بعد ذلك إلى الموضوع الرئيس، فبشّر المجاهدين برضوان الله عنهم، لما يسره الله لهم من استرداد البيت المقدس من أعدائهم، ثم أخذ بتعداد فضائل

(١) انظر الروضتين: ج ٢: ص ١١٠ - ١١٢، وابن أصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ٢١٨ - ٢٢٧ وعبدالحليل عبدالمهدي: مقال: «ابن زكي وخطبته القدسية»: دراسة وتحقيق ص ١٧٦ - ٢٣٢: مجلة مجمع اللغة العربية الأردني: السنة الثالثة عشرة: العدد: ٣٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية (٤٥).

(٣) سورة الفاتحة: الآيات (١-٣).

(٤) سورة الأنعام: الآية رقم: (١).

(٥) سورة الإسراء: الآية رقم (١١١).

بيت المقدس، فقال: « .. أيها الناس: أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدرجة العليا، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة^(١)، وردّها الى مقرّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام^(٢)... وإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، وهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد (عليهما الصلاة والسلام).... وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر.... وهو أولى^(٣) القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين الشريفين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه...»، ثم هنا هؤلاء المجاهدين لاختصاص الله لهم دون غيرهم بفضيلة هذا الفتح العظيم، وتشريفهم به، مما يقتضى منهم شكر الله تعالى على هذه النعمة، ثم عاد ثانية إلى ذكر فضائل بيت المقدس، وحمد الله على هذا النصر الذي تحقق لهم دون غيرهم، وتهنئتهم به، ثم نهاهم عن اتباع أهوائهم، والنكوص عن الجهاد، وذكرهم بأن النصر من عند الله وحده، فعليهم أن يلتزموا بطاعة الله، والبعد عن نواهيه... ثم دعا للاستمرار في الجهاد لتحرير ما تبقى من أرض المسلمين بأيدي الفرنج بعد أن ضعفوا وهانوا، وقلت أعدادهم كثيراً، فقال: «... والجهاد الجهاد، فهو من أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم.. جدّوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقية الأرض من هذه الأنجاس التي أغضبت الله ورسوله.....»

الله أكبر! فتح الله ونصر! وغلب الله وقهر!، وأذل الله من كفر! . واعلموا - رحمكم الله - أنّ هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها... والأمر بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله - تعالى - بهذا العدو المخدول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منهم منكم عشرون؟!... أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره، والأزدجار بزواجره، وأيدنا

(١) من الأمة الضالة: من الصليبيين: إشارة إلى وصف الله تعالى لهم بالضالين في سورة الفاتحة.

(٢) إشارة إلى الاحتلال الصليبي لها من عام (٤٩٢-٥٨٣هـ) واستباحة الحرمات فيها خلال هذه المدة.

(٣) في الأصل: أول، والصواب: أولى.

معشر المسلمين بنصر من عنده ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟!....﴾ (١).

وجلس قليلاً، ثم قام وأتبع هذه الخطبة بالخطبة الثانية التي دعا فيها للخليفة، ثم للسلطان صلاح الدين ولآله وللمسلمين دعاءً حاراً وبلغاً، وختمها بقوله: «... فأجب دعوته ودعاه في قوله (أي صلاح الدين) ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ، وَعَلَى وَالِدِي، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾» (٢).

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الخطيب ألقى ثلاث خطب أخرى في الجمع التالية، ولكن لم تصلنا منها سوى هذه الخطبة.

التقويم الفني:

سلك الخطيب في هذه الخطبة نهج الخطباء السابقين فجعلها خطبتين، اشتملت الأولى منهما على المقدمة والعرض، واشتملت الثانية على الدعاء، وهو الخاتمة.

وقد استهل الخطبة بحمد الله على هذا النصر المبين بثمانية تحميدات من التحميدات الواردة في القرآن الكريم، وأضاف إليها تحميدتين من إنشائه، فجاءت هذه التحميدات استهلالاً بارعاً يتناسب مع جلالة النصر، وعظمة الفتح، ويعبر عن مدى ابتهاج الخطيب والمسلمين به، بعد أن تم تحرير بيت المقدس الذي بقي أسيراً في أيدي الغزاة إحدى وتسعين سنة هجرية.

ثم ذكر الشهادتين وصلى على النبي (ﷺ) وعلى خلفائه الراشدين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان جرياً على سنة الخطباء السابقين، واتباعاً لمقاييس النقاد والبلغاء العرب (٣).

(١) الآية رقم (١٦٠) من سورة آل عمران.

(٢) الآية رقم (١٩) من سورة النمل.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢: ص ٦، وابن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صناعة الكلام: ص ٥٦-٥٩،

١٦٦، ١٦٧.

فجاءت هذه المقدمة الطويلة تمهيداً مناسباً لموضوع الخطبة من حيث الطول والمعنى، ثم انتقل الى الموضوع الرئيس بقوله: «أيها الناس أبشروا برضوان الله...» فعرض الأفكار التي هدف إلى الحديث عنها، وتركيزها في أذهان السامعين، وهي: بيان عظمة الفتح الذي يستدعي كل الحمد والشكر لله عليه، والإشادة بالسلطان صلاح الدين وجنده المجاهدين الذين خصهم الله بهذا النصر العظيم دون غيرهم، وتعداد فضائل بيت المقدس، والمسجد الأقصى المبارك، وبيان مكانتهما لدى المسلمين، وحثَّ المجاهدين على شكر الله تعالى على عظيم نصره، باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وعلى متابعة الجهاد حتى تحرير الارض المحتلة جميعها.

ثم أتبع هذا العرض بالخطبة الثانية التي جاءت خاتمة مناسبة للخطبة الأولى على النحو المتبع في خطب الجمع، والتي دعا فيها للخليفة أولاً، ثم دعا بحرارة بالغة للسلطان صلاح الدين وآله بخاصة، وللمسلمين بعامة.

وقد جاءت أجزاء هذه الخطبة من مقدمة، وعرض وخاتمة ملائمة لموضوعها، ومترابطة فنياً.

لقد شهد ابن الزكي بنفسه - وهو الفقيه المسلم المتلهف على استعادة بيت المقدس، والمسجد الأقصى المبارك - هذا الفتح المبين، وشارك المسلمين الابتهاج به، ثم قدّم هذه التجربة الشعورية العميقة التي عاشها في هذه الخطبة التي توفر لها الصدق الفني والتاريخي للتعبير عن مشاعر الخطيب والمسلمين إزاء هذا الحدث العظيم، فبين ما يجول في ذهنه من خواطر وأفكار، وصور ما يختلج في صدره من عواطف ومشاعر عميقة حارة صادقة، فحفلت هذه الخطبة بالمشاعر الدينية المتأججة المتمثلة في الشكر العميق لله على هذه النعمة العظمى، والتقدير للمسجد الأقصى المبارك، ولبيت المقدس، والإعجاب بصلاح الدين وجنده الذين تحقق هذا النصر على أيديهم، والثناء على جهادهم، وحثهم على الإلتزام بطاعة الله، واجتناب نواهيه، ومواصلة الجهاد حتى تحرير الاراضي المحتلة

كلها، وهذه العواطف يجمعها شعور عام واحد هو الابتهاج بهذا النصر العظيم، مما أضفى على النص كله وحدة في المشاعر والأحاسيس.

وقد استمد الخطيب معانيه - كما رأينا - من المصادر الإسلامية، كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والتاريخ الإسلامي والمفاهيم الإسلامية العامة، فضلاً عن الصراع العسكري بين المسلمين والفرنج بدا الصراع في هذه الخطبة واضحاً بين العقيدتين الإسلامية القائمة على التوحيد، والنصرانية القائمة على التثليث، اذ ركز الخطيب فيها على الآيات التي تؤكد وحدانية الله (جلّ وعلا) وتنفي الشرك عنه، وتندد بالمشركين بالله مثل: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً﴾^(١).

والتي تؤكد نبوة المسيح - عليه السلام - وعبوديته لله تعالى مثل: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾^(٢)، ومثل: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم﴾^(٣)، وقد استخدم - أيضاً - بعض المصطلحات النصرانية مثل: شعار الصليبان، وعبدة الصليبان، والتثليث.

وقد جاءت معانيه واضحة، بعيدة عن الغموض، والغرابة والتعقيد، ومرتببة ترتيباً منطقياً سليماً، تدور - على الرغم من تعددها - حول موضوع واحد هو الابتهاج بهذا الفتح العظيم، وقد عرضها عرضاً مقنعاً، معتمداً على قوة حججه المستمدة من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والأقوال المأثورة، الدالة على صحة أفكاره ومعتقداته.

كما لجأ كثيراً إلى الإطناب، لتأكيد أفكاره في أذهان السامعين، تارة عن طريق تكرار المعنى الواحد في قوالب لفظية مختلفة، مثل التحميدات المتتالية في مطلع الخطبة، ومثل قوله: «هو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومدفن الرسل،

(١) سورة الإسراء: الآية رقم (١١١).

(٢) سورة النساء: الآية رقم (١٧٢).

(٣) سورة المائدة: الآية رقم (١٧).

ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي...» وتارة عن طريق التفصيل بعد الإيجاز، مثل: وإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، وهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد (عليهما الصلاة والسلام)، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام...

وجاءت ألفاظه فصيحة جزلة مناسبة لموضوع الفتوح والتهاني، ومألوفة بعيدة عن الغرابة وتراكيبه قوية، وبعيدة عن التعقيد، وقد تأثر أسلوبه كثيراً بالقرآن الكريم بالاقتراب منه تارة، مثل: آيات التحميد، والآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، والآيات الدالة على فضائل المسجد الأقصى المبارك وبنشر آياته تارة أخرى، مثل قوله: وأظهر دينه على الدين كله، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾^(١)، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع، ويذكر فيه اسمه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه...﴾^(٢).

وقد كان النقاد - آنذاك - يستحسنون اشتغال الخطبة الدينية على الآيات الكريمة، لأن ذلك - كما يقول الجاحظ: «مما يورث البهاء والوقار والرقعة وسلس الموقع»^(٣)، ولأنه - كما يقول ابن عبد الغفور الكلاعي: «من أنجح ما ضمنه المرئجل، وأرجح ما استعان به المحتفل...»^(٤).

وتأثر أسلوبه بالحديث الشريف، إذ نشر في خطبته بعض الأحاديث الشريفة مثل قوله: وهو أولى القبليتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين الشريفين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، إشارة إلى الحديث الشريف «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»^(٥).

(١) سورة الفتح: الآية رقم (٢٨).

(٢) سورة النور: الآية رقم (٣٦).

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين: ج ١: ص ١١٨.

(٤) ابن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام: ص ١٦٩.

(٥) صحيح البخاري: المجلد الأول: ص ١١٨.

ومثل: وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر، إشارة إلى قوله (ﷺ) في بيت المقدس: «أرض المحشر والمنشر، إئتوه فصلوا فيه، فان صلاة فيه كالف صلاة في غيره»^(١)، وتأثر بأحداث التاريخ الإسلامي، مثل قوله: «... وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أول من رفع عن هذا البيت المقدس شعار الصليبان...»، ومثل ربطه بين واقع الجيش الإسلامي في عهده وبين وقائع التاريخ الإسلامي المشهورة مثل قوله: «فظوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوحات العمرية...».

كما تأثر بالشعر العربي، مثل قوله: «فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء»، إشارة لقول أبي تمام:

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب^(٢)

ولو أن أسلوبه باستخدام الأساليب الحبرية - أحياناً - والأساليب الإنشائية - أحياناً أخرى - مثل الأمر بمعنى التبشير في قوله: أبشروا برضوان الله، فليهنكم، وبمعنى النصح والإرشاد في قوله: اقدروا هذه النعمة، واحمدوا الله، واحفظوا هذه الموهبة... وبمعنى الدعاء مثل: اللهم آدم سلطان عبدك... وعم بدولته البسيطة، والتحذير مثل: وإياكم أن يستزلكم الشيطان... والإغراء مثل: الجهاد الجهاد.

واستخدم الصنعة البديعية كثيراً في خطبته، فالتزم بالسجع، وأكثر من الإزدواج، وحسن التقسيم، دون التضحية بالمعاني أو التجربة الشعورية العميقة، واستعان بالجمل القصيرة المتلاحقة، فجاءت أسجاعه كالقوافي، ذات إيقاع موسيقي مثير للابتهاج والحماسة، مثل: الحمد لله مُعزُّ الإسلام بنصره، ومُذلُّ

(١) سنن ابن ماجه: ج ١: ص ٤٥١: الحديث رقم (١٤٠٧).

(٢) ديوان أبي تمام: ج ١: ص ٤٦.

الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره.... كما استخدم أحياناً الطباق والمقابلة والجناس مثل: وإنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه، وأغناكم بما أمضته، كان وقد، عن سوف وحتى، أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره، والإزدجار بزواجره، وأرض المحشر، وصعيد المنشر وغيرها.

وقد اهتم بالصور الأدبية الحية التي تقوم على التشابيه، والاستعارات مثل صوره المثيرة للاشمئزاز عند وصفه لحال القدس في أثناء الاحتلال، مثل: أبشروا برضوان الله... لما يسره على أيديكم من استرداد هذه الضالة، من الأمة الضالة، وردّها إلى مقرها من الإسلام، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت... وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتدّ عليها رواقه، واستقرّ فيها رسمه، ومثل صوره المثيرة للابتهاج والسرور المستوحاة من أمجاد المسلمين، مثل: وظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية... ورفع قواعده بالتوحيد، فإنّه بني عليه وشيد بنيانه بالتمجيد، وإنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه.... ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي.... وقد احتفى الخطيب في صوره كثيراً بالتجسيم والتشخيص فأضفى عليها حياة وحركة مثل قوله: فاحفظوا هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم، بتقوى الله تعالى التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم، واحذروا من اتباع الهوى.... وإزالة ما بقي من الغصة، جدوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، واقطعوا فروع الكفر، واجتثوا أصوله، وسيروا إليها سرايا عزماتكم.

واستمد الخطيب هذه الصور... كما رأينا - من ثقافته الدينية والأدبية والتاريخية الواسعة ومن بيئته.

وقد توفرت لهذه الخطبة خصائص الخطبة البليغة الناجحة، والتي يمكن اعتبار خصائصها خصائص للخطب البليغة في هذا العصر.

النشر القصصي

اهتمّ الناثرون في هذا العصر بالنشر القصصي بمفهومه العام؛ الذي يشمل الخبر والحكاية والحديث القصصي، وما إلى ذلك، ولا نعني بذلك القصة بمفهومها الحديث، إذ إنها أصبحت الآن فناً مستقلاً له أصوله وقواعده، وخصائصه الثابتة، والمتعارف عليها لدى النقاد في العصر الحديث .

ولقد تنوع النشر القصصي في هذا العصر، فقد ظهر منه نشر الحكاية، والأقصوصة، والقصة الطويلة، كما تنوعت هذه القصص فمنها الواقعية، ومنها الخيالية، ومنها الرمزية .

فمن الحكايات والأقاصيص في هذا العصر ما رواه أسامة في كتابه «الاعتبار» إذ قدّم لنا صوراً من حياته وحالة عصره على شكل حكايات وأقاصيص برع فيها إلى حد كبير .

ومن أمثلة حكاياته ما رواه عندما هاجم الروم شيزر سنة ٥٣٢هـ وضربوها بالمجانيق فقال: « .. وضربت (١) حجر المنجنيق رجلاً من أصحابنا كسرت رجله، فحملوه إلى بين يدي عمي (أي أمير شيزر آنذاك) وهو جالس في دهليز الحصن، فقال: هاتوا المجبر، وكان بشيزر رجل صالح، يقال له: يحيى، صانع في التجبير، فحضر وجلس يجبر رجله وهو في سترة خارج باب الحصن، فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه فطيرته! فدخل المجبر إلى الدهليز، فقال عمي: ما أسرع ما جبرته! قال: يا مولاي، جاءته حجر ثانية أغنته عن التجبير! » (٢) .

لقد صوّرت هذه الحكاية - كما رأينا - جانباً من حياة أهل شيزر عندما حاصرها الإفرنج، وقذفوها بحجارة المجانيق، واستخدم أسامة فيها اللغة السهلة البسيطة، وأجرى فيها الحوار باللغة الدارجة، مثل: هاتوا المجبر، ما أسرع ما

(١) الصواب ضرب حجر المنجنيق.. كسر رجله.. ف ضرب الرجل المكسور في رأسه فطيره!... جاءه حجر ثانٍ أغناه عن التجبير! .

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ١١٤ .

جبرته!، جاءت حجرة ثانية أغنته عن التجبير! .

وعلى الرغم من قصر هذه الحكاية، فقد نوع فيها في أسلوبه بين السرد والوصف والحوار، فجاءت نابضة بالحياة والحركة، والأحداث المتتابعة.

ومن أمثلة أفاصيصة أيضاً ما رواه على لسان رجل ببغداد، بأن القاضي أبا بكر محمداً الأنصاري الفرضي حدثه أنه في أثناء طوافه حول الكعبة عند الحج وجد عقداً من اللؤلؤ، فسمع صاحبه يعلن عن فقدته، وجعل لمن يرده عليه مكافأة كبيرة، فسأله عن صفاته، فحددها له، فأعاده إليه، ورفض أخذ المكافأة، لأنه فعل ذلك إرضاء لله عز وجل، فقال صاحب العقد: «استقبل بنا الكعبة وأمن على دعائي، فاستقبلنا الكعبة، فقال: اللهم اغفر له وارزقني مكافأته...»^(١).

وبعد قضاء فريضة الحج سافر ذلك الرجل الأمين الى مصر ثم ركب البحر إلى المغرب، فاعترض مركب للروم مركبهم، وأخذ من فيه أسرى، فاسترقه أحد القسوس، فبقي في خدمته الى أن دنت وفاته، فأطلق سراحه، فسار الى المغرب واشتغل عند أحد الخبازين، ثم علم أحد الأثرياء بمعرفته بالكتابة والمحاسبة فاستخدمه عنده، وسلمه جباية أمواله من الآخرين، وبعد مدة من الزمن عرض عليه الزواج من ابنته التي وصفها له بأنها كتلة من العيوب، فرضي بذلك وعقد عقد زواجه عليها.

ثم روى الرجل ما حصل قائلاً: «.. فلما كان بعد أيام قال لي: تهباً لدخول بيتك، ثم أمر لي بكسوة فاخرة، ودخلت إلى دار فيها التجميل والآلات ثم أجلس في المرتبة، وأخرجت العروس تحت النمط، فقامت لتلقيها، فلما كشفت النمط رأيت صورة ما رأيت في الدنيا أجمل منها! فهربت من الدار خارجاً، فلقيني الشيخ، وسألني عن سبب هربي، فقلت: إن الزوجة ما هي التي ذكرت لي فيها من العيوب ما ذكرت، فتبسم، وقال: يا ولدي هي زوجتك وليس لي ولد سواها، وإنما ذكرت لك ما ذكرت لئلا تستقل ما تراه، فعدت وجليت عليّ».

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ١٧٨.

وفي اليوم التالي أخذ الزوج يتأمل ما على عروسه من الحلبي والجواهر فشاهد من جملة ما عليها العقد الذي وجدته في أثناء طوافه بالكعبة، فاستغرق في التفكير في كيفية وصول هذا العقد إلى عروسه، فاسترعى ذلك انتباه والد زوجته فسأله قائلاً: « فيم تفكر؟! فقلت: في العقد الفلاني، فإني حججت في السنة الفلانية فوجدته في الحرم، أو عقداً يُشبهه. فصاح وقال: أنت الذي رددت عليّ العقد؟! قلت: أنا ذاك، فقال: أبشر فإن الله قد غفر لي ولك، فإني دعوت الله - سبحانه - في تلك الساعة أن يغفر لي ولك، وأن يرزقني مكافأتك، وقد سلمت إليك مالي وولدي، وما أظن أجلي إلا وقد قرب، ثم أوصى إليّ، ومات بعد مديدة قريبة، رحمه الله»^(١).

وقد بدت في هذا النص معظم مقومات الأصوصة: فهو قصة قصيرة يدور موضوعها حول فضيلة خلقية واحدة هي الأمانة وجزاؤها، وتصور حوادثها جانباً من الحياة الواقعية للمسلمين - آنذاك - وبطل القصة قاضٍ معروف، وقد جاءت أحداثها متتالية، وقليلة التفرع والتفاصيل، وقد تحركت بسرعة نحو العقدة بعد عثور الرجل الأمين على العقد، ثم إعادته إلى صاحبه دون مقابل طلباً للأجر، ثم وقوعه في أسر الروم، ثم خلاصه من الاسترقاق، واستكتابه من قبل أحد الأثرياء المغاربة، ثم مشاهدته للعقد ضمن حلبي عروسه، ثم اتجهت الحوادث بسرعة نحو الحل حيث اكتشف أن صاحب العقد هو والد عروسه، فكان جزاء أمانته أن كافأه الله تعالى بالزواج من الابنة الوحيدة لصاحب العقد الثري، فألت إليه ثروته كلها.

وقد أثار تطور الأحداث، ونمو الحركة في هذه الأصوصة عنصر التشويق فيها لمعرفة سر وصول هذا العقد إلى العروس.

وقد كان الرجل الأمين بطل هذه الأصوصة، وشخصيتها الرئيسية، وظهرت إلى جانبه شخصية أخرى مهمة هي شخصية صاحب العقد، والد العروس، وشخصيات

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ١٧٨-١٨٠.

أخرى ثانوية قليلة الأهمية هي القسيس وصاحب الخبز والعروس، وقد أدى كل منها دوره الوجيز الملائم له .

أمّا مكان الأقصوصة فقد اتسع كثيراً حيث شمل البيت الحرام، وطريق السفر براً إلى مصر ثم بحراً إلى بلاد المغرب، ثم بعض بلاد الروم، ثم إحدى بلاد المغرب .

واتسع زمانها فامتد إلى سنوات . واستخدم الكاتب فيها اللغة الفصيحة السهلة المألوفة الخالية من الغرابة والصنعة البديعية المتكلفة، كما نوع فيها بين السرد الإخباري والوصف والحوار .

وظهرت إلى جانب ذلك قصص رمزية وعظيمة طويلة منها قصة « النسر والبلبل » للمهذب أبي طالب الدمشقي، وملخصها: أن نسرا كان يحلق في الجو فشاهد روضة يانعة، وسمع تغريداً ساحراً ينطلق منها، فهوى من عليائه ليرى هذا الطائر المغرد، فوجده بلبلاً صغير الحجم، ضئيل الجسم، أسود اللون، فريداً بغير أليف أو صديق، فتعجب من امتلاك هذا البلبل الضئيل لهذا الصوت، وافتقاره هو لمثله على الرغم من ضخامة جسمه، وكريم خصاله وجمال ألوانه، وقوة بطشه، وطول عمره، وامتلاكه لعرش الطيور على مر الدهور، ثم سأل البلبل متعجباً: من أين أتى بهذا التغريد الجميل؟! فأجابه: بأن الصانع الحكيم لا يهب الأصوات حسب الأجسام، وأنه اقتبس هذه الأنغام العذبة من احتفال ليلي يقيمه في هذه الروضة صاحبها الملك، الذي يأتي إليها مع ندمائه بعد هبوط الظلام، وطلب من النسر أن يحذو حذوه، فيبيت في هذا الروض، ويستمع إلى ألحان هذا الحفل الساهر، « فلما سمع النسر مقاله ودَّعه وطار، وقال: لعل في الانتظار بلوغ الأوطار، وأثبت في نفسه الرجوع، وقال: أمنع عيني الليلة الهجوع... ثم سقط على بعض الأشجار، متوخياً بزعمه مضي النهار، وأدركه الليل فنام، وغرق في بحر الكرى، وكلما حركت سواكنه داعيات الطلب، وأقامت قاعده مزعجات الأرب . قال: الليل بعد في إبان شبابه، ولعله ما جاء الملك مع أصحابه ولم يزل

في رؤيا أحلام الأباطيل، وإقامة المعارض الفاسدة التأويل، حتى وضع فلق الصباح عن مشرقه.... فتنبه من رقدة غفلته، وطار من وكر جهالته، وأمّ روضة البلبيل طائراً، ونزل عليها دهشاً حائراً، وقد تفرق جمع الملك في السكك.... فقال له البلبيل: يا هذا ما الذي شغلك حتى أشغلك؟! وما الذي منّاك، حتى عدمت منّاك؟!... أما علمت أن من استلذّ المنام، واستطاب الأحلام، عدم المرام، ووجه إليه الملام؟! وأن من شد وسط اجتهاده، وصل إلى بلوغ مراده...»، ثم أتم هذه القصة بفصل وعظي^(١).

وهذه القصة (بالمعنى الواسع للقصة) - كما نرى - رمزية وعظمية هدفها حث الناس على الجد والاجتهاد في العمل، وترك التواني والإخلاق للكسل. وقد جعل الكاتب الروضة الزاهرة مسرحاً لأحداث قصته، ووصف الجو العام المحيط بها، كما جعل زمانها يوماً وليلة.

وقد بدأت أحداث هذه القصة بالتدرج نحو العقدة عندما سمع النسر الضخم القوي المعتد بنفسه التغريد الساحر للبلبل الضعيف، ثم تدرجت الحوادث نحو الحل بمحاولته تعلم الأنغام العذبة من الحفل الليلي الذي يقيمه الملك وندماؤه في ذلك الروض الجميل أسوة بالبلبل، ثم سارت الأحداث نحو الحل عندما أخذ النسر إلى النوم الطويل والكسل حتى بزغ الفجر وانفض الحفل، ففشل في تحقيق مراده.

أما الصراع فقد جاء في هذه القصة ضعيفاً، والحركة فيها قليلة ومحدودة لأن الحوار الوعظي الطويل المباشر قد طغى على أسلوبها، ولأنه أكثر من المواقف الوصفية فصدر التشويق عن موضوع القصة أكثر مما صدر عن تطور الأحداث ونمو الصراع فيها.

وعلى الرغم من طول هذه القصة نسبياً إلا أنها لم تشتمل سوى على شخصيتين

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج ١: ص ٣٤٠-٣٥٣.

رئيستين من عالم الطيور، وهما النسر والبلبل، وقد جسّد الكاتب منهما نموذجين بشريين، وأسقط عليهما الخصائص الإنسانية من نطق وتفكير وأحاسيس ومشاعر، فأخذنا يتحاوران بما أسفر عن سمات كل منهما وطبائعه، فبدا النسر فيها ممثلاً للقوة والجبروت وضخامة الجسم وجماله، والغرور، والكسل، وظهر البلبل ممثلاً للضعف، وضآلة الجسم، والجد وجمال الصوت، والحكمة، حيث أعطى الكاتب في حوارهِ كلاً من الطائرتين الدور اللائق به، وأنطقه بما يناسبه، مما أضفى على عظاته طابعاً لطيفاً خفف من وطأة الوعظ المباشر.

وقد جاءت هذه القصة حافلة بالمواعظ والحكم، والمعاني العميقة الحائثة على الجد والاجتهاد، وترك التواني والكسل لبلوغ الأهداف الكبيرة.

كما حرص الكاتب فيها على انتقاء ألفاظه المناسبة بعناية، وصاغها في عبارات فصيحة قوية خالية من الركاكة والضعف، وقد التزم فيها بالسجع، فجاءت أسجاعه قصيرة ومتوسطة، وعذبة ورشيقة، كما أكثر من استخدام المحسنات البديعية الأخرى كحسن التقسيم والازدواج والطباق والجناس كما في قوله يصف النسر: «... كأنما أجنحته ركبت من العواصف، واستلبت من البروق الخواطف، وأخذت من رمز الألفاظ، واستعيرت من غمز الألفاظ... يقبض أجنحته ويبسط، ويصعد إلى السماء تارة ويهبط...»^(١).

ونوع في أسلوبه بين السرد^(٢) والوصف الطويل^(٣)، والحوار^(٤)، وبين الأساليب الخبرية والإنشائية^(٥)، وضمّن قصته كثيراً من الأمثال والحكم^(٦)، كما زوَج فيها بين

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج ١: ص ٣٤١-٣٤٢.

(٢) المصدر السابق: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج ١: ص ٣٤٠-٣٤٢.

(٣) المصدر السابق: ج ١: ص ٣٤٥.

(٤) المصدر السابق: ج ١: ص ٣٤٧-٣٥٣.

(٥) المصدر السابق: ج ١: ص ٣٥٢-٣٥٣.

(٦) المصدر السابق: ج ١: ص ٣٤٥، ٣٥٢-٣٥٣.

النثر والشعر^(١)، وخياله في هذه القصة واسع، فكل قصته من نسج الخيال، كما أنّ القصة جاءت حافلة بالصور البيانية كالتشبيه، والاستعارات، والكنايات، المستمدة من ثقافته الواسعة الدينية والأدبية والتاريخية، ومن بيئته الخاصة والعامّة، وقد عمد فيها إلى تجسيم المعاني، وتشخيص الجماد والحيوان، وبالمشاهد المتكاملة مثل قوله في وصف الروض: «... واطلع من رواشن أبراج السماء، على روض أريض، وظلّ عريض، وأنهار متدفقة، وأشجار مونقة، وطل منشور، وورد ومنشور، ومكان بهج، وزهر أرج... قد صقلت بمصاقل القطر مرايا أزهارها، وعقدت لرؤوس أغصانها تيجان نوارها، وأكاليل جلنارها، ونشرت النسائم مطويات حللها من أسفاطها، ورقصت حور بناتها على سعة بساطها...»^(٢).

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج ١: انظر مثلا الصفحات: ٣٤٠-٣٤٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٤٢.

المنامات

روى بعض الكتاب قصص الرؤى والأحلام، ولا سيّما ما يتعلق منها بكرامات الأولياء والصالحين، وقد أفرد أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» - كما رأينا - فصلاً كاملاً لهذه الأقايصص، وهذا النوع من القصص معروف منذ أقدم العصور، وقد أسهم انتشار الزهد في شيوع هذا النوع من القصص وكثرته.

وكتب بعض النّاثرين في هذا العصر نوعاً آخر من الرؤى عرف بالمنامات، والمنامة: قصة خيالية (بالمعنى الواسع للقصة القديمة) يقدمها الكاتب على أنها حلم شاهده في منامه.

وقد كتب الوهراني مناماً طويلاً ردّ فيه على رسالة بعث بها إليه صديقه الحافظ العليمي^(١) مطالباً إياه فيها «بالأوتار الهزلية بعد الزمان الطويل»^(٢)، وبعد أن غلب عليه النوم رأى مناماً تخيل فيه أنه نفخ في الصور، ونادى المنادي بالناس أن هلموا إلى العرض على الله تعالى، فخرج الوهراني من جدته، ويم شطر الداعي الى أن بلغ أرض المحشر وقد أجمه العرق، وأخذ منه التعب والفرق، فظهر له أحد أصحابه، وأخبره أن بعض الجوّاري يطلبنه مدعيات عليه أنه باعهن لغيره وهن حوامل.... وعندها تذكر بعض أقرانه الذين أغرقوا في الفواحش، وتصور هول ما سيحل بهم، ثم التقى صديقه صاحب الرسالة الحافظ العليمي الذي بادره بالشتيم واللكم، لأنه خاطبه في رسالته السابقة باسمه، دون كنية أو لقب، فذكره الوهراني بما هم فيه من أهوال يوم القيامة، ولا سيّما أن مالكاً خازن النار كان يفتش على أهل الفاحشة من أمثالهما ويقتادهم مسلسلين إلى جهنم، ولكن صاحبه أصر على أن يقاضيه عند القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، فيعرض الوهراني بالشهرزوري وبمظالمه للعباد بعامة ولابن عصرون

(١) لعله المحدث والتاجر الدمشقي أبو الخطاب العليمي عمر بن محمد بن عبدالله الدمشقي المتوفى في

سنة ٥٧٤هـ (شذرات الذهب: ج ٤: ص ٢٤٨).

(٢) منامات الوهراني: ص ٢٣.

بخاصة، وبينما هو وصاحبه يتحاوران إذ هجم عليهما مالك خازن النار ورمى السلسلة على رقبتيهما وجرهما نحو النار لاقترافهما الفواحش في دنياهما، وبعد رجاء شديد منهما أطلقهما مالك، فصعدا إلى جبل الأعراف . . ثم التقيا بالمجد ابن أبي الحكم، الذي كان يحمل رقعة من المؤيد بن العميد إلى الملك رضوان، يطلب منه أشجاراً من الجنة، ليطعم بها أشجار بستانه في الدنيا، فعرضاً بأسلوبها، فانشى ابن أبي الحكم عن عزمه في تقديمها لرضوان، ثم سمعوا ضجة عظيمة فإذا الناس مبتهجون، وعبد الرحمن بن ملجم المرادي^(١)، والشمر بن ذي الجوشن الضبابي^(٢)، والحجاج بن يوسف الثقفي، وإبليس يرقصون ويلعبون، لأن الله غفر للفقير المجير، والمهذب بن النقاش مع أنه «لم يولد في الإسلام مولود قط أرق ديناً من هذين الرجلين ولا أقل خيراً منهما»^(٣) فاستبشر الناس خيراً، وأملوا في عفو الله عن خطيئاتهم، فاهتبل الوهراني الفرصة ولحق بالمهذب بن النقاش - قبل أن يدخل الجنة ولا يعود يراه - مطالباً إياه بالعشرة دنائير التي كانت له بذمته، أو بما يعادلها من الحسنات، فسخر منه الحاضرون لعلمهم بأنه لا حسنة له، وأخبروه بأنه ما عُفِر له إلا بشفاعة ملك الموت عزرائيل فيه، ومحبتة له لأنه كان يساعده في قبض أرواح المرضى عند معالجته لهم، فاضطر الوهراني إلى مسامحته بدينه إكراماً لعزرائيل، ثم اشتد العطش بالوهراني وصاحبه، وتعبا من المحاورة والوقوف، فاتجها نحو الحوض للشرب منه، فلقيهما أحد أصحابهما فرحاً بنجاته من النار لأنه كان يسراً الأشعرية، ولم يتبع مذهب الخنابلة في التشبيه، ثم حاول الوهراني والعلمي الشرب من الحوض - وعنده علي^(٤) (كرم الله وجهه) وآله وأصحابه - مدعين أنهما من أهل العلم والقرآن، فكشف أحد الحاضرين أمرهما فطردا عن الحوض، ثم أتى الرسول (ﷺ) في موكب عظيم وحوله آله

(١) رجل خارجي، قتل علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، فقتله أولاد علي سنة ٤٤ هـ (ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير: ج ٣: ص ٢١-٢٧).

(٢) من قتلة الحسين بن علي، طلبه المختار الثقفي بدم الحسين، فهرب من الكوفة وقتل سنة ٦٦ هـ: (الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج ٥: ص ٤٥٠-٤٥٣، ج ٦: ص ٤٤-٥٥).

(٣) منامات الوهراني: ص ٣٧.

وأصحابه « كأنهم الشموس والأقمار، ركبان على نجائب من نور يؤمون المشرعة العظمى من الحوض المورود»^(١)، ولكنهما لم يستطيعا الوصول إليه من الزحام، فطلعا إلى جبل الأعراف يرقبانه، فشاهداه وقد أعرض عن الصوفية، ثم مسح على رأس صلاح الدين الأيوبي، ودعا له بالنصر والتأييد. ثم ذهبا فتنشعا بيزيد ابن معاوية فأرسل معهما كتيبة من الجيش الشامي ليردا عنوة الحوض المحمي من أنصار علي، فشربا منه ثم سمعا صيحة عظيمة حيث أقبل علي في جيشه، وأخذ الطرقات على الشاميين الذين جاؤوا معهما، فخرج الوهراني من جميع ما كان فيه، ووقع من على سريره، واستيقظ من نومه خائفاً مذعوراً، ولذة ذلك الماء في فمه، وطنين الصيحة في أذنه، ورعب الوقعة في قلبه « إلى يوم ينفخ في الصور»^(٢).

وقد استخدم الوهراني الألفاظ السهلة، المألوفة، والفصيحة غالباً والتي تشوبها العامية – أحياناً – مثل قوله: أنا رايح أردھا عليه، خرب بيتك، بحياتي عليك لا تذكرھا، مبھلق العينين، طير عقولنا، والمبتذلة والمجانة أحياناً أخرى^(٣).

وقد صاغها في عبارات سهلة بسيطة بعيدة عن التعقيد والتكلف غالباً، وقد استخدم في وصف حاله وشوقه عندما استلم رسالة صديقه العليمي في مقدمة منامه الأسلوب المسجع الخافل بالصنعة البديعية، ولكنه تخلى عنه عندما بدأ في وصف منامه، فلم يستخدم المحسنات البديعية إلا قليلاً كالسجع في قوله: وقد أجمني العرق، واخذ مني التعب والفرق، وأنا من الخوف في أسوأ حال، وقد أنساني جميع ما أفاسيه، عظيم ما أعانيه من شدة الأهوال. والطباق في قوله: أما ترى الملائكة منحدره من السماء إلى الأرض زرافات ووحداناً؟، وأوقفه بين الجنة

(١) منامات الوهراني: ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٠.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٥، ٢٦، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٨ وغيرها.

والنار، والاعتباس من القرآن الكريم مثل: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة﴾^(١)، و﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها﴾^(٢). والتضمين بالشعر مثل:

إذا كان الغراب دليل قوم فلا يعدو بهم طرق الخراب

ومثل:

لا تعجبين لخير إن أتاك به فالكوكب النحس يسقى الأرض أحياناً^(٣)
وبالأمثال الفصيحة مثل: اذكر سعيداً تره، واذكر الكلب، واستعد له بفهر^(٤)، والعامية مثل: حولاً بحولاً، ربة البيت أولى، عين لا ترى، قلب لا يحزن.

ويتسم أسلوبه بالاستطراد - أحياناً - مثل انتقاله من وصف ما هم فيه، عندما باغتهم مالك خازن النار، إلى الحديث عن الترخيم في النداء، الجائز عند جميع النحاة، ومثل تفسيره لمعنى كلمة الحوس في أثناء الحوار.

ويغلب الإطناب على أسلوبه مثل قوله في وصف الصوفية للرسول (ﷺ) عندما سأل عنهم: «هؤلاء قوم من أمتك، غلب العجز والكسل على طباعهم، فتركوا المعاش، وانقطعوا إلى المساجد، يأكلون وينامون، فقال: فيماذا كانوا ينفعون الناس، ويعينون بني آدم؟!، فقيل له: والله ولا بشيء البتة، ولا كانوا إلا كممثل شجر الخروع في البستان، يشرب الماء، ويضيق المكان...».

وقد جاءت معانيه في هذا المنام واضحة قريبة المنال، وقائمة على العبث والمجون والسخرية.

(١) سورة لقمان: الآية رقم (٢٨).

(٢) سورة الكهف: الآية رقم (٤٩).

(٣) في الأصل: ولا تعجب لخير إن أتاك به... ولعل الصواب ما ذكرته.

(٤) الفهر: الحجر: (اللسان: مادة: فهر).

ومنامه هذا كله من نسج الخيال، وقد حفل بالصور البيانية كالتشابه والاستعارات والكنايات المستمدة من ثقافته الدينية، مثل قوله: هذا اليوم هو اليوم العبوس القمطير، ولا بُدُّ لك من الاجتماع بأبيك الغسل وأمك الهاوية، ولولا ما ظهر من تعصبك لأهل الشر، لطرت مع الملائكة إلى سدرة المنتهى. ومن ثقافته التاريخية مثل قوله: أقبل نجم الدين، وأسد الدين (يعني والد صلاح الدين الأيوبي وعمه) راكبين على فرسين كالعقابين من خيل ربيعة، وعلى كل منهما خلعة الحج، وخلعة الجهاد، وقول معاوية لابنه: لا تبعث معهم ابن زياد... ودماء بني أبيك في ثيابه، وسيفه يقطر منها إلى الآن.

ومن بيئته مثل قوله: ولا كانوا إلا كمثل شجر الخروع في البستان...

كما جاء هذا المنام حافلاً بالمشاهد الحية المتحركة مثل قوله بعد أن شرب عنوة من الحوض الذي كان يحميه آنذاك رجال علي بمساعدة رجال معاوية: «... فبينما نحن في أطيب عيش وأهناء، وإذا بضجة عظيمة قد أقبلت، وزعقات متتابعة، وأصحابنا يهربون. فقلنا: ما لكم؟! فقيل: علي عليه السلام، قد أخذ الطرقات على الشاميين، وجاءنا سرعان الخيل فيها محمد بن الحنفية يزأر في أوائلها مثل الليث الهصور، فلما انتهى إلينا صاح بنا صيحة عظيمة هائلة أخرجتني من جميع ما كنت فيه، فوقعت من علي سريري، فانتبهت من نومي خائفاً مذعوراً...».

وعلى الرغم من أنه نقلنا في منامه من الواقع الأرضي إلى يوم الحشر، إلا أن معظم صورته، ومشاهده لم تخرج عن الصور والمشاهد في الحياة الدنيا.

بين منام الوهراني ورسالتي: الغفران^(١) والتوابع والزوابع^(٢):

جاءت هذه المنامة مثلها رداً من الكاتب علي رسالة بعث بها إليه صديقه الحافظ العليمي، طالباً لثأره منه لأنه خاطبه في رسالة له قبل ثلاث سنوات «بمجرد

(١) أبو العلاء المعري: رسالة الغفران (طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت).

(٢) ابن شهيد الأندلسي: رسالة التوابع والزوابع (تحقيق ودراسة بطرس البستاني).

الاسم، وحذف جميع الألقاب»^(١)، ثم انتقل الى وصف منام له، رأى فيه فيما يرى النائم أن القيامة قد قامت، فخرج من قبره، وسار حتى بلغ أرض المحشر، وقام برحلة خيالية في يوم العرض، وقد قصد مثلهما طرق عالم الأرواح.

ولم تخل رسالة التوابع والزوابع من بعض السخرية والتهكم، ورسالة الغفران تقوم في معظمها على التهكم والسخرية، وأما منامة الوهراني فتقوم كلها على الهزل والعبث والسخرية والمجون.

وقد صاغ كل منهم رسالته بأسلوب قصصي يغلب عليه الحوار، وأنطق كل منهم الملائكة أو الجن، وحاول أن يبهر صاحبه برده عليه.

وموضوع رسالة ابن شهيد يدور حول مجالس الأدب في زمانه، وزمان سابقه حيث أنشد فيها شعره وقصائده، وموضوع رسالة الغفران يدور حول الشعر والعروض والموسيقى والنحو والصرف والأدب والنقد، أما موضوع الوهراني فيدور حول العبث والمجون، ومحاسبه هو وأصحابه وغيرهم على قبائح أعمالهم في الدنيا، ومع ذلك فقد اشتمل منامه على مسألة لغوية واحدة هي الترخيم في النداء حيث عرضها بسرعة وعلى رأي نقدي بسيط واحد على لسان أحد النحاة لأحد الأدباء.

وأشخاص ابن شهيد من الشعراء وتابعيهم من الجن، ومن الحيوان العاقل الناطق كبغلة أبي عيسى والإوزة.

وأشخاص رسالة الغفران من الشعراء واللغويين والنقاد والرواة، وبعض الملائكة، والرسول (ﷺ) وآله وصحبه، وحمزة وعلي (رضي الله عنهما)، ومن الحيوان العاقل الناطق كحية الفردوس والإوزة.

وأشخاص الوهراني: صديقه صاحب الرسالة المحافظ العليمي، وبعض أصدقائه الآخرين، وبعض معاصريه من الفقهاء والقضاة والنحاة والأدباء، والأطباء، وبعض

(١) منامات الوهراني: ص ٢٢.

مجرمي الخلائق، وبعض الملائكة، والمتصوفة، وبعض الأيوبيين، والرسول (ﷺ) وآله وصحبه، وعلي (ض) وآله وأصحابه، ومعاوية وآله وأصحابه.

ومع أن كلاً من الثلاثة قد حاول إظهار براعته الأدبية في عمله الأدبي إلا أن ابن شهيد هدف - أيضاً - إلى إظهار تفوقه على غيره من الشعراء وسعة خياله، وهدم خصومه وحساده، وهدف أبو العلاء المعري إلى التهكم من ابن القارح والسخرية منه، وهدف الوهراني إلى العبث بصديقه صاحب الرسالة، والتماجن معه، والتعريض بعدد ممن لقيهم في حياته، أو ماتوا قبله، لما اجترحوه من قبائح الأعمال.

وقد جعل ابن شهيد من نفسه بطلاً لقصته، وقصر دور تابعه زهير بن نمير على تعريفه بالأماكن والأشخاص، وجعل أبو العلاء من ابن القارح بطلاً لقصته، وتوارى خلفه، يلقنه ما يريد قوله، ويحركه كما يشاء.

أما الوهراني: فقد جعل من نفسه بطلاً لقصته، واصطحب معه صديقه صاحب الرسالة، وجعل منه أحد أشخاص قصته العاديين.

وأسلوب ابن شهيد عذب رقيق، وقد احتفى في رسالته بألوان من المحسنات البديعية، وبالصور البيانية، والمشاهد الحية.

أما أسلوب أبي العلاء فهو مُلغز بالألفاظ الغريبة، ومثقل بأصناف الصنعة البديعية المتكلفة، كما أنه حافل بالاستطراد الذي يمزق الموضوع الواحد، أو المشهد المتكامل من أجل تفسير لفظة، أو لإملاء فصل لغوي، ولا شك أن أبا العلاء، كان أوسعهم ثقافة، وأعمقهم فكراً، وأبرعهم تصويراً، وأكثرهم تكلفاً وصنعة وغموضاً في أسلوبه.

وأسلوب الوهراني - كما رأينا - سهل واضح خالٍ من التعقيد والتكلف، ومعانيه قريبة المنال، وصوره واقعية.

ومنامه بشكل عام مليء بالظرف والفكاهة والسخرية، ويمكن القول: إن

الوهراني قد تأثر برسالة الغفران في بعض الجوانب، ولكن لا يبدو أنه تأثر برسالة التوابع والزوابع بشكل واضح، وقد سلك الوهراني في هذا المنام الأسلوب القصصي، وقد تبدت فيه أركان القصة الخيالية إلى حدٍ كبير التي تعتمد على العقدة، والحركة، والمفاجأة، والوقائع المثيرة، ووصف التفاصيل الدقيقة، ومناسبة الشخصيات للأدوار التي تقوم بها، وتسجيل ألوان من الحياة، ثم الوصول إلى الحل، والالتزام بوحدة المكان ووحدة الزمان، فموضوعه - كما رأينا - عبارة عن منام رهيب شاهد فيه جوانب من يوم المحشر، فيها وصف دقيق وتصوير بارع لمواقف أشخاص المنام من ذوي الفواحش والخطايا، وهول المشهد، وعنصر المخاطرة، واضحان جداً بالنسبة للوهراني وأشخاص منامه الخاطئين، فعندما يستبد بالوهراني الظمأ يفكر في الشرب من الحوض المورود، ثم يستمر جاهداً في محاولاته بشتى الشفاعات والحيل، ولكنه يمتن بالفشل في محاولاته ويزداد عن الحوض مراراً، وفي ذلك أكثر من عقدة، ثم تتدرج الأحداث إلى العقدة الرئيسية، فيصر على الشرب من الحوض على الرغم من حماية أنصار علي له من الخاطئين، حتى كاد أن يثير معركة جديدة بين أنصار معاوية وعلي مثل معركة صفين في الدنيا. والقارىء مشفق من هذا الصدام، ومتشوق إلى انفراج هذا المازق الذي انتهى باستيقاظ الوهراني من نومه مذعوراً.

وهذا ما يسمى بالحركة في القصة وما يكتنفها من أحداث مثيرة تؤدي إلى العقدة ثم إلى الحل.

وقد جاءت العقدة في هذه القصة محبوكة إلى حدٍ ما، والانتقال واضح الحركة - غالباً - والعرض متتابع، والقصة حافلة بالمفاجآت، والوقائع المثيرة، التي لا تلبث أن تنتهي بنهاية مناسبة، وقد جعل الوهراني أرض المحشر مسرحاً لأحداث منامته، ويوم العرض زماناً لها.

وقد امتازت هذه المنامة بكثرة أشخاصها، وتصويرها لجانب من حياة أصحاب العيب والمجون والفكاهة وجوانب من الصراع بين أنصار معاوية وعلي، كما نوع

المؤلف فيها بين أسلوب السرد القصصي والوصف الدقيق للمشاهد الحية المتحركة، والحوار الدائب، واستعمل في معظمها الأسلوب السهل البسيط واللغة المفهومة والعبارات الدارجة مما جعلها في مستوى القصص الفكاهية الطريفة .

* * * *

وظهرت إلى جانب هذه الحكايات، والأقاصيص، والقصص، والمنامات، والمقامات، المكتوبة باللغة الفصحى قصص شعبية مثل «السيرة الهلالية»^(١)، ومثل «ألف ليلة وليلة»، التي تضمنت بعض القصص التي تعكس صوراً من الصراع الذي كان جارياً بين المسلمين والفرنج - آنذاك - مما يدل على أنها كتبت في هذا العصر مثل قصة «علي نور الدين المصري مع مريم الزنارية»^(٢) وحكاية «الصعيدي وزوجته الإفرنجية»^(٣).

(١) يرجح الدكتور شوقي ضيف أن هذه القصة آلفت في القرن السابع الهجري أو بعده في القرن الثامن (تاريخ الأدب العربي : عصر الإمارات : (مصر والشام) : ص ٤٨٦ : طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤) .

(٢) ألف ليلة وليلة في الكتاب السابع : ص ١-٣ (تحقيق الأب أنطون صالحاني اليسوعي : طبعة المطبعة الكاثوليكية ، بيروت) .

(٣) المصدر السابق : الكتاب السابع : ص ٤-٧ (الليلة : ٨٩٥) .

المقامات

تعني المقامة في اللغة: المجلس، أو الجماعة من الناس^(١)، أو السادة من الرجال، أو العظة، أو الخطبة تقال بين يدي أمير^(٢)، أو الأحدثة من الكلام^(٣).

وقد اختلف الباحثون المحدثون في تعريف المقامة، فقد اعتبرها زكي مبارك قصة قصيرة^(٤) ووصفها محمد زغلول سلام بأنها مزيج من فني القصة والرسالة^(٥)، وغير ذلك^(٦).

وقد حظيت مقامات الحريري^(٧) - آنذاك - باهتمام الأدباء والكتّاب بها، إذ كانت إحدى ركائز أهل ذلك الزمان من متعاطي صناعة الانشاء^(٨)، لما تحويه من ثروة أدبية ولغوية، فظفرت هذه المقامات بشروح كثيرة منها: المطول في شرح المقامات لمحمد بن ظفر الصقلي (-٥٦٥هـ)^(٩)، وشرح جيد للغاية لصفى الدين

(١) ابن منظور: لسان العرب: مادة (قوم).

(٢) الزمخشري: أساس البلاغة: ج ٢: مادة (قوم).

(٣) القلقشندي: صبح الاعشى: ج ١٤: ص ١٢٤.

(٤) زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع: ج ١: ص ٢٤٢.

(٥) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي ص ١٨٠.

(٦) كمال اليازجي: الأساليب النثرية في الأدب العربي القديم: ص ١٢٩، وفكتور الكوك: بديعات الزمان: ص ٤٨.

(٧) هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري، ولد في حدود سنة (٤٤٦هـ/١٠٥٤م) في البصرة ونشأ وتعلم اللغة والأدب والفقه فيها، ثم قلّد الحريري الهمداني في المقامات، فأنشأ خمسين مقامة، بالغ فيها في التأنق، وفي استخدام الصنعة البديعية المتكلفة، وتوفي في البصرة سنة (٥١٦هـ/١١٢٢م) وله مؤلفات مشهورة منها: «درة الغواص في أوام الخواص»، «وملحة الإعراب»، «وشرح ملححة الإعراب» وغيرها (معجم الأدباء: ج ١٦: ص ٢٦١-٢٩٣).

(٨) ضياء الدين بن الأثير: الوشي المرفوم: ص ٥٠-٥١.

(٩) السيوطي: بغية الوعاة: ج ١: ص ١٤٢-١٤٣.

عبدالكريم البعلبكي (-٦٠٠هـ)^(١)، وشرحان لأبي محمد القاسم بن القاسم
الواسطي (-٦٢٦هـ)^(٢).

ولم يكتب الأدباء بشرحها بل كتب بعضهم في الرد عليها، فألف عبدالله بن
أحمد بن الخشاب (-٥٦٧هـ) كتاب «الرد على الحريري في مقاماته»^(٣) وكتب
بعضهم الآخر مقامات جديدة، فصنّف ملك النحاة الحسن بن أبي الحسن الصافي
(-٥٦٨هـ) كتاب «المقامات» الذي هو من جنس مقامات الحريري، وكان يقول
مقاماتي جدّ وصدق، ومقامات الحريري هزلٌ وكذب»^(٤).

وثبت عن القاضي الفاضل أنه شرع في معارضة المقامات، إذ عارض فيها كل
فصل بفصل أحسن منه^(٥).

إلا أنّ هذه الشروح، وتلك المقامات لم تصل إلينا، ولكن وصلتنا بضع مقامات
لرکن الدين محمد بن محرز الوهراني منها:

مقامته عن صقلية^(٦):

وقد وصف فيها دخوله إلى صقلية في أحد الأيام الخالية، فعشق الإقامة فيها،
ثم حضر يوماً مجلساً في أحد بساتينها ضمّ طائفةً من الفقهاء والأدباء، وفيهم
الأديب البليغ أبو الوليد القرطبي، فسأله عن رأيه في أعيان البلد مثل القاضي ابن
رجاء، وأبيه وابنه، والفقير ابن بقية، والكاتب يوسف وابنه وأخيه، فأجابهم على
ذلك بأسلوب سهل ظريف يطغى عليه الهزل والمرح، ومنها قوله: «... فقلنا له
(أي لأبي الوليد القرطبي): ما تقول في القاضي ابن رجاء؟ قال: مصباح دجى،

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون: ج٢: ص١٧٨٩.

(٢) ابن شاکر الکتبي: فوات الوفیات: ج٣: ص١٩٢-١٩٦.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٢: ص٥٢.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٦٨.

(٥) ابن حجة الحموي: خزنة الأدب وغاية الأرب: ص٤٦١.

(٦) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص٢١٩-٢٢١.

وشيخ علم وحجى، وهو بيت القضا، وكلمة حكم وعدل ورضا، نزة نفسه عن الرشا والولائم، فلا تأخذه في الله لومة لائم، غير أنه عظيم الشفقة، كثير البقبة^(١)، بسيفه على الخصمين، ولو أنهما ملكان^(٢)، ويضيع أوقات الصلاة، ويمنع يواقيت الصلات، لا يرثى للغريب، ولا يتوجع، ولا يوسي ولا يسأل ولا يتفجع، فنكب عن ذراه (فلأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه).

قلت: فما تقول في الشيخ أبيه، قال: كان - رحمه الله - يتناعس على الخصمين، فلا يوقظه إلا سلسلة الكفين، ولو قبضت على أنفه بالكلبتين... قلت: فما تقول في ولده؟

قال: ابن لبون، لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب...^(٣).

ثم عرض بالكاتب يوسف وولده وأخيه.

أما مقامته في شمس الخلافة:

فقد نقل فيها عن راوية هذه المقامة عيسى بن حماد الصقلي أنه عندما ضعف المسلمون بصقلية انتقل منها إلى دمشق، فرأى في الحي الذي يقطنه رجلاً شديداً تبيته بنفسه، ثقیل الظل يدعى شمس الخلافة، فسأله الراوية عن مولده ومنشئه، فادعى أنهما كانا في ما وراء النهر، ولكنه انتقل إلى الشام، واستقر بها، فلم يقتنع بجوابه، وسأل أحد معارفه عنه، فأخبره بأنه رجل مغربي جاهل، وأنه جاء للحدج وهو معدم فحاول أن يكتري بيتاً من عجوز مغربية ثرية كانت تعلم البنات الغزل، فأعجبت به وتزوجت منه في الحال، وحاولت أن ترفع من شأنه، فاشترت له ملابس الفقهاء، وطلبت منه أن يغشى مجالس العلماء ويدعي العلم والفقهاء، قائلة له: «... أريد أن أخرجك من المدابير وأضعك على رؤوس المنابر،

(١) البقبة: كثرة الكلام أو الكلام المخلط (اللسان: مادة: بقق).

(٢) في الأصل ملكين.

(٣) منامات الوهراني: ص ٢١٩-٢٢٠.

فأحضر ذهنك، وأحضر لهذا الدرس أذنك، اعلم أن الألف قائم كالمغزل، وهو كباب المنزل، والباء كالصنارة، أو كرجل المنارة، والهاء كالثقاله، وفيها شيء كالعرقاله، والطاء كالحف أو كطارة الدف، وكل مدور ميم، وكل معوج جيم، والصاد تشبه نعالك، والذال تشبه قذالك^(١). فاحفظ هذا الكلام وقد أصبحت مفتي العراق والشام... فأقبل التيس يكرر لفظه، حتى أجاد حفظه، وعندها خرج في القمه والعمه، وعزم على مدرسة جمال الأئمة، فخرجت تبخره من العين وتقرأ عليه المعوذتين» وفي الصباح ذهب إلى المدرسة مرتدياً لباس الفقهاء، فأجله الحاضرون، ظناً منهم أنه من أهل العلم والفقه، «حتى جاء وقت المناظرة، فحينئذ برز بالوجه الوقاح والإفك الصراح، فأرهب المدرسة بالصياح، وأخذ يقول نوعاً من الهذيان، وضرباً من الباذنجان، فوقع الناس في البلاء، وعلموا أنه دلو من الدلاء، وتحققوا أن الرجل كالسطل، لا يصلح إلا للاصطبل، فخرجت هيبتته من صدورهم، ونبذوه وراء ظهورهم...» فترك مجالس العلم والعلماء، ثم كثرت أمواله وحاشيته وأعوانه، فتغير على زوجته «بعد أن كان يفديها بمهجته، وصار يجري بينهما في المجالس، ما يحفظ عنهما في المدارس...»^(٢).

وأما مقامته البغدادية :

فقد قال في مطلعها: «قال الوهراني، لما تعذرت مآربي، واضطربت مغاربي^(٣)، ألقىت حبلي على غاربي، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاف الأدب رضاعتي، فما مررت بأمرير إلا حللت ساحته، واستمطرت راحته... فتقلبت بي الأعصار، وتقاذفت بي الأمصار... فقصدت مدينة السلام، لأقضي حجة الإسلام... فأرحت نفسي من سلوك الغور والفتح، وجلست أنتظر أيام الحج، فتأقت نفسي إلى معاشره العقلاء واشتأقت إلى محادثة الفضلاء... فدلني بعض

(١) القذال جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس فوق القفا (اللسان: مادة: قذال).

(٢) منامات الوهراني: ص ٩٧-١٠٢.

(٣) اضطربت أموري وأحوالي في المغرب.

السادة الموالي على دكان الشيخ أبي المعالي^(١)، وقال: هو بستان الأدب، وديوان العرب، يرجع إلى رأي مصيب، ويضرب في كل علم بنصيب، فقصدت قصده، حتى جلست عنده، وسألني عن حالي، وعن طريق انتحالي، فقلت: إني رجل غريب، وعهدي بالسفر قريب...» ثم سأله عن موطنه، وعن رأيه في دولة المثلثين (المرابطين)، ودولة الموحدين، وعن الدولة الفاطمية، وكيف آلت مصر للأيوبيين، وعادت للخلافة العباسية، ثم عن رأيه في السلطان نور الدين محمود، وفي خليفة ذلك العصر، ووزيره، فأجابه على هذه الأسئلة، ثم استشار الوهراني أبا المعالي في مقابلة ذلك الوزير، واستماحته، فشجعه على ذلك، ثم أشاد بأهل بغداد، ولا سيما صاحب الديوان فيها الذي أغناه بكرمه عن الآخرين^(٢).

خصائصها الفنية:

لا نستطيع من خلال هذه المقامات القليلة أن نحكم على خصائص المقامات كلها في هذا العصر، ولكن يمكننا أن نستخلص منها مدى التطور الذي أصاب هذا الفن آنذاك.

لم يعد موضوع المقامة مقصوراً على الكُدية والاحتتيال، بل شمل عند الوهراني موضوعات أخرى مثل النقد الاجتماعي اللاذع تارة لبعض النماذج الإنسانية البغيضة، التي يصورها تصويراً بارعاً بما عرف عنه من حدة الطبع، وفرط الإحساس، ولذع السخرية، وإظهار براعته الأدبية، وثقافته التاريخية تارة أخرى.

فقد عرّض الوهراني في مقامته عن صقلية ببعض النماذج من القضاة مثل ابن

(١) ربما كان أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم الأنصاري الحظيري المعروف بدلال الكتب، وكان يعمل بالوراقة وكان أدبياً، عارفاً بعدد من علوم عصره، وله نظم رقيق في الغزل والخمر والمجون، وقد توفي في بغداد سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م)، وله مؤلفات عديدة منها: زينة الدهر وعُصرة أهل العصر، ولح الملح، والإعجاز في الأحاجي والألغاز وغيرها (معجم الأدباء: ج ١١: ص ١٩٤-١٩٧).

(٢) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص ١٠-١٦.

رجاء الشرثار الغافل عن مواعيد الصلاة، القاطع للمصلات بين الناس، وغير المبالي بالآم الناس ومصائبهم، وأبيه الذي كان يتناحس في مجلس القضاء، فتختلط عليه أمور الخصمين، ويلتبس عليه الحق، وابنه الذي كان لا يرتجى لنفع، كما عرض ببعض الكتاب مثل الكاتب يوسف وولده أبي علي وأخيه أبي الفتوح.

وللوهراني قدرة كبيرة على السخرية والتندر والفكاهة، فقد سخر في مقامته عن شمس الخلافة سخرية لاذعة بنموذج إنساني آخر، شديد التيه بنفسه، ثقيل الظل مدعٍ للعلم والفقه، وعراقاة النسب، مع أنه غبي جاهل من أصل وضع.

أمّا في مقامته البغدادية، فقد صورّ لنا حاله في مغتربه ببغداد، فحاول إبراز ثقافته الأدبية والتاريخية وسعيه المتواصل لاستماحة ممدوحيه.

ولم يعد - أيضاً - ظهور البطل والراوية المحددين في المقامة تقليداً ثابتاً، فقد روى الوهراني نفسه ما جرى في مقامته عن صقلية، ولم نجد فيها وفي غيرها بطلاً واحداً لها، بل ظهر في هذه المقامة أبو الوليد القرطبي متحدثاً وناقداً لبعض الناس في ذلك المجلس، أمّا في مقامته عن شمس الخلافة، فقد جعل الوهراني راويتها عيسى بن حماد الصقلي، وجعل بطلها شمس الخلافة نفسه، الذي قدّمه - كما رأينا - في صورة بغیضة مثيرة للسخرية والاحتقار والضحك، خلافاً لصورة البطل في مقامات السابقين الذي يتصف بالفصاحة والبلاغة، فهو شاعر وناثر وخطيب، وناقد وفقه وملكلم محيط بشتى فنون اللغة والأدب والدين، حاضر البديهة سريع الارتجاز، ويمتاز بالذكاء وسعة الخيلة، وخفة الظل، وقد تأصلت الكدية في نفسه حتى أصبح رمزاً للمكدي الماكر المحتمل.

وأما في مقامته البغدادية، فقد جعل الكاتب من نفسه بطلاً لمقامته وراوية لها في آن واحد، وقد ظهر فيها أديباً مثقفاً يسعى لمقابلة العلماء والأدباء، ومادحاً لذوي الجاه والسلطان، ومستميحاً لهم بصورة مباشرة تخلو من الخيلة.

ولم يغفل الوهراني الناحية الثقافية في مقاماته، فهدف إلى جانب الإطراف والنقد الاجتماعي إلى إشاعة جو تعليمي ثقافي كما في وصفه للدولة الفاطمية،

ولدولتي الموحدين والمرابطين^(١)، وللخليفة العباسي، مثل قوله:

« .. قد جمع الله فيه من الفضائل والوفاء، ما فرقه في سائر الخلفاء فكأنه السفاح في حزمه وعزمه، والمهدي في دولته وصولته، والرشيد في سياسته ورياسته، والأمين في سخائه وانتخائه، والمأمون في حلمه وعلمه، والمعتصم في شهامته وصرامته... »^(٢).

ولم تجيء المقامة عنده قصة قصيرة محبوكة جيداً تتدرج أحداثها نحو العقدة ثم إلى الحل، ويحتال بطلها للوصول إلى هدفه في الكدية، بل جاءت مجلساً حوارياً في المقامة عن صقلية، وحديثاً قصصياً في مقامته عن شمس الخلافة، وفي مقامته البغدادية.

وقدم الوهراني مقاماته بأسلوب بارع رشيق خفيف الظل، حافل بالسخرية والتعريض والعبث في مقامته عن صقلية وعن شمس الخلافة، كما لم تخل مقامته البغدادية من السخرية والعبث عند وصفه لدولة الموحدين، وللحال الدولة الفاطمية قبيل سقوطها.

وقد استخدم في معظم مقاماته الألفاظ الفصيحة السهلة المألوفة، ولكنها لم تخل - أحياناً - من بعض الألفاظ العامية التي تقرب المقامة من الواقع مثل: سال عليه ربالها يا جيافه، كثير البقبة، ففضل من يستحق وعيب، فجاء هذا الشيخ أبو... يطلب عندها بيتاً للكر، ومن بعض الألفاظ الغربية بالنسبة لنا أبناء العصر الحاضر - أحياناً أخرى - والتي ربما دعاه إليها حرصه على السجع والجناس، مثل: القلفندر^(٣)، وتتقنع، واللوالك^(٤)، والشماشك^(٥)، والجاندار^(٦).

(١) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص ١٠-١٤.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥.

(٣) لم أجد لها معنى في المعاجم.

(٤) اللوالك: لم أجد لها معنى ولعلها نوع من الأحذية الخفيفة.

(٥) الشماشك: زي من ملابس الرعاة (DOZY: TOME I: P.787).

(٦) الجاندار: حارس ذات الملك (أدي شير: الألفاظ الفارسية المعربة: ص ٤٦).

واتسم أسلوبه بالإطناب مثل قوله: «... فسار ذكرهم في الأقطار، وانتال عليهم ذرؤ الأخطار، فقصدهم الملك والمملوك، وانتابهم الغني والصعلوك، فوهبوا البلاد والتلاد، وفرقوا المال والأعمال حتى أخرجوا البحار، وفضحوا بجودهم الأنهار، فاشتدت بهم شوكة الموحدين، وخمدت نيران المشركين...»^(١).

ونوع في أسلوبه - كما رأينا - بين السرد والوصف والحوار، وأساليب الخبر والإنشاء^(٢)، ورصع أسلوبه بالافتباس من القرآن الكريم مثل: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٣)، و﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾^(٤)، و﴿ذُرِّيَّةَ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ﴾^(٥) و﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ، وَرَفَعَ أَبَاهُ عَلَى الْعَرْشِ﴾^(٦)، و﴿تَوْتِي أَكَلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾^(٧).

وبالتضمين بالأمثال الفصيحة، مثل: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» و«لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب» و«ألقيت حبلي على غاربي».

وبالأمثال العامية، مثل: «حلو اللسان بعيد الإحسان»، و«سال عليه ريالها».

وبالآبيات الشعرية، لأنه كان يكمل نشره بالشعر، مثل:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتبك بالأخبار من لم تزود^(٨)

(١) منامات الوهرائي ومقاماته ورسائله: ص ١٤.

(٢) المصدر السابق: انظر الصفحات: ص ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٦.

(٣) سورة الأنفال: الآية رقم (٣٧).

(٤) سورة الرعد: الآية رقم (٣٥).

(٥) سورة آل عمران: الآية رقم (٣٤).

(٦) سورة يوسف: الآية رقم (٩٩).

(٧) سورة إبراهيم: الآية رقم (٢٥).

(٨) ديوان طرفة بن العبد: ص ٢٩.

ومثل :

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح لا لها^(١)

كما التزم في مقاماته بالأسلوب المسجوع الذي طبع به بديع الزمان الهمذاني المقامة العربية، وجاءت معظم سجعاته قصيرة، ومتوسطة، وخاضعة للمعنى، ومنقادة إليه، تتفق مع ما ذهب إليه ضياء الدين بن الأثير في السجع^(٢).

وأكثر من استخدام الجناس، والأزدواج، وحسن التقسيم، كما في قوله: قال مصباح دجى، وشيخ علم وحجى، يضيع يواقيت الصلاة، ويمنع مواقيت الصلات، وبعد علي غوره، وأشكل علي أمره، سهم للدولة سديد، وركن للخلافة شديد، أكرم من الغيث الهامر، وأشجع من الليث الخادر، فوثب عليهم وثبة الليث الكاسر، وسطا بهم سطوة البطل الباسر...

كما استخدم الطباق والمقابلة، مثل: الطول والعرض، وغريب ونسيب، ويأخذه ويدعه، ويرفعه ويضعه، فصارت القاهرة كجنة النعيم، وكانت كالبقعة السوداء في سواء الجحيم.

وقد استمد معانيه من ثقافة عصره الدينية والأدبية والتاريخية، ومن بيئته الخاصة والعامة، ولا سيما أنه لم يتقلد منصباً رفيعاً، بل عاش بين عامة الناس، فجاءت معانيه عادية وواضحة وتقليدية معروفة تكاد تخلو من الجدة والابتكار.

وكان الوهراني فناناً بارع الوصف فاعتنى عناية كبيرة بالوصف الدقيق، وبالصورة الأدبية، وهي تتمثل عنده - غالباً - بالصور البيانية من تشبيهات واستعارات وكنايات مستمدة من ثقافته الدينية والأدبية واللغوية والتاريخية، مثل قوله: وجنة أبدع غارسها... «كمثل الجنة التي وعد المتقون»، هلك طالوتها

(١) ديوان أبي العتاهية: ص ٣٧٥.

(٢) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ١: انظر ص ٢٧١-٢٧٥، ٢٧٧، ٣٢٣-٣٢٧.

فاختلت، وانقرض جالوتها فاعتلت، وألقيت حبلتي على غاربي، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاف الأدب رضاعتي، وهو بستان الأدب، وديوان العرب، فضرب زيد عمرا، وقتل خالد بكرا، فاستعانوا عليه بالأسود والأحمر، والملوك من بني الأصفر، فكأنه السفاح في حزمه وعزمه، والمنصور في بذله وعطائه أو مستمدة من بيئته ومشاهداته، مثل الدرس الحافل بالصور البيانية المضحكة الدالة على الجهل والغباء الذي ألقته الزوجة على شمس الخلافة في تعليم الحروف العربية، ومنه: «اعلم أن الألف قائم كالمغزل، وهو كباب المنزل، والباء كالصنارة، أو كرجل المنارة، والهاء كالثقاله، وفيها شيء كالعرقالة، والطاء كالحف أو كطارة الدف، والصاد تشبه نعالك، والذال تشبه قذالك» .

ومثل قوله: وهو من ورائها كالثور، وعلموا أنه دلو من الدلاء، وتحققوا أن الرجل كالسطل لا يصلح إلا للاصطبل .

وقد يؤلف الوهراني - أحيانا - بين الصور البيانية الجزئية فيقدمها في مشهد حوار حبي متكامل رشيق مثير للسخرية والضحك والاحتقار، كما في وصفه للحوار الذي جرى بين شمس الخلافة وزوجته: «فلما أصبح قال لها: يا هذه، اعلمي أنني كنت في بلدي إسكافا، وأصبحت اليوم في مرحاضك كنافا، فكيف لي بالمدارس، وأنا كالطلل الدارس؟! ومن أين لي الخير، وأنا مثل حمار العزير؟! والله ما أفرق بين الحروف، وبين قرون الحاروف! فقالت: أنا أعلمك العلم كله إلا أقله، وأعلمك فصلاً في التدريس تغلب به محمد بن إدريس^(١) فقال لها: يا هذه، والله ما أرجو من المدرسة نفعاً، وإني أخاف أن يقتلونني صفعاً، فدعيني من اقتحامك وإقحامك، فقالت: أريد أن أخرجك من المدابر، وأضعك على رؤوس المناير، فأحضر ذهنك، وافتح لهذا الدرس أذنك»^(٢) .

(١) هو الإمام محمد بن إدريس بن العباس الشافعي، ولد سنة ١٥٠هـ، وقدم مصر سنة ١٩٨هـ، توفي سنة ٢٠٤هـ وهو أحد أصحاب المذاهب السنية الأربعة (ياقوت: معجم الأدباء: ج١٧: ص٢٨١-٣٢٧).

(٢) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص٩٩-١٠٠.

السيرة

هي كما يقول عبد الكريم الأشتر: ما يترجمه الأدباء «لحياتهم وحياة أعلامهم من رجال الأدب والفكر والسياسة، إذ يجمعون الوثائق التي تتصل بها، فيصنفونها ويدرسونها دراسة دقيقة يتمثلون فيها هذه الحياة قائمة في ظروفها من الزمان والمكان، ويرصدون نموها ومراحل تطورها، ثم يكتبون قصتها من جديد»^(١).

ويقرب من ذلك قول مها العطار: هي «قصة واقعية جرت حوادثها في الماضي، ولكنها تسترجع من الذاكرة ليعاد تمثيلها على مسرح الحياة، فكأن كاتبها يعيش تلك الحياة مرة أخرى، فيتقمص شخصية البطل ويشعر بشعوره، ويحس بأحاسيسه، وربما رأى بعينيه أحداث حياته من خلال الوثائق، أو من خلال قصص استمد وقائعها من أهله وأصدقائه ومعاصريه ليجسم تلك الحياة، وينفخ فيها الروح لتمثل بإتقان، مراعيًا في ذلك أطري الزمان والمكان، وتطور البطل ونموه»^(٢).

والسيرة نوعان: السيرة الذاتية، والسيرة الموضوعية.

وقد اختلف الباحثون العرب المحدثون حول تسمية السيرة الذاتية، فمنهم من سمّاها السيرة الذاتية أو الترجمة الذاتية^(٣)، ومنهم من سمّاها الترجمة الشخصية^(٤).

وهي - كما يقول إحسان عباس - «تجربة ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا ما بلغت هذه التجربة دور النضج، وأصبحت في نفس صاحبها نوعاً من القلق الفني، فإنه لا بُدَّ أن يكتبها»^(٥).

(١) عبد الكريم الأشتر: فنون النثر المهجري: ص ١٨٠.

(٢) مها العطار: السيرة الفنية في الأدب العربي: ص ١٣-١٤ (رسالة جامعية).

(٣) إحسان عباس: فن السيرة: ص ٩١.

(٤) شوقي ضيف: الترجمة الشخصية: ص ٥-٦.

(٥) إحسان عباس: فن السيرة: ص ٩٥.

أو هي- كما تقول مها العطار- « قصة حياة شخص ما كتبها بقلمه، فسرد لنا فيها ترجمة حياته، وحدثنا عن دخائل نفسه وتجاربه، ليثير فينا الرغبة في الكشف عن عالمه المجهول، وهي الزبدة التي تمخضت خلال سنين طويلة من حياة أديب ما أودعها تجاربه، ومآسيه وأفراحه»^(١).

والسيرة الذاتية هي جزء أو أجزاء من قصة حياة فرد أو مجموعة من تجاربه الإنسانية كتبها بأسلوبه الخاص للتأكيد على عقيدة يعتنقها أو فكرة يعتقد بها، أو تجارب يعرضها لنشاركه في قناعاته ومشاعره.

وقد عرف الأدب العربي قديماً عدداً من السير الذاتية^(٢)، وفي العصر الذي نكتب عنه، وجدت ملامح من السيرة الذاتية، ذات الطابع الإخباري المحض في «مياومات القاضي الفاضل، والعناصر الذاتية في كتب الرحالة كرحلة ابن جبير... وموفق الدين البغدادي» كما يذكر إحسان عباس^(٣).

وألف أسامة بن منقذ كتاب «الاعتبار» بعد أن تخطى التسعين، وأورد فيه تجاربه وملاحظاته المختلفة على شكل مذكرات ذاتية، وجعله في ثلاثة أبواب هي:

الأول: حروب وأسفار^(٤): يقع في ١٦٨ صفحة، وهو - على الرغم من فقدان إحدى وعشرين ورقة من أوله - أطول الأبواب، وأكثرها شمولاً لحياته الخاصة، والحالة عصره العامة، حيث عرض فيه بطريقة غير مباشرة - من خلال الحوادث التي مرت به في حياته - صوراً من الحضارتين الإسلامية والصليبية في بلاد الشام - آنذاك - ثم ختم هذا الباب بمدح لصلاح الدين.

الثاني: نكت ونوادير^(٥): يقع في ٢٠ صفحة، ويتحدث فيه عن أخبار

(١) مها العطار: السيرة في الأدب العربي: ص ٤٨.

(٢) انظر مثلاً: شوقي ضيف: الترجمة الشخصية: ص ١٢ - ٣٠، وإحسان عباس: فن السيرة: ص ١١١-١٣٠.

(٣) إحسان عباس: فن السيرة: ص ١١٤.

(٤) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ١-١٦٧.

(٥) المصدر السابق: ص ١٦٩-١٨٨.

الصالحين وكراماتهم، وعن الشفاء بطرق غريبة .

الثالث : أخبار الصيد^(١) : يقع في ٣٧ صفحة، ويتحدث فيها عن مشاهداته للصيد والجوارح بشيزر في فجر حياته، ثم في الموصل ودمشق ومصر وحصن كيفا، فقد حضر قتال الأسود في مواقف كثيرة، وقتل - كما يقول- : عدة منها لم يشاركه «أحد في قتلها»^(٢) .

وقد مكنته مشاهداته الكثيرة للصيد من معرفة بعض طبائع الحيوان^(٣) .

ومما رواه أسامة في هذا الكتاب وصفه لأسلوب تربيته منذ حدثته، إذ كان أبوه يربيه على الشجاعة والإقدام، إذ يقول : « مرة كنت معه (مع والده) - رحمه الله - وهو واقف في قاعة الدار، وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التي في الدار، فوقف يبصرها . فحملت سلماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت إليها، وهو يراني فلا ينهاني وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطها، وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون الذراع، وجعلت أحرز رأسها - وخرجت ألتفت على يدي - إلى أن قطعت رأسها وألقيتها إلى الدار، وهي ميتة .

بل رأيت - رحمه الله - وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر^(٤)، فلماً وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها، فحمل على الخيل، ثم وقف، وأنا وأخي بهاء الدولة منقذ - رحمه الله - بين الأسد وبين موكب فيه أبي وعمي - رحمهما الله - ومعهما جماعة من الجند، والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرب بصدرة على الأرض ويهدر، فحملت عليه، فصاح علي أبي - رحمه الله - لا تستقبله يا مجنون، فيأخذك ! فطعنته، فلا والله ما تحرك من مكانه،

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار : ص ١٩١-٢٢٧ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٤٤ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٠٦-١١٢، ٢١٧-٢١٨، ٢٢٤-٢٢٥ .

(٤) يعني جسر شيزر .

ومات في موضعه . فما رأيت الوالد نهاني عن قتال غير ذلك اليوم»^(١) .

وكتاب الاعتبار من أقدم الكتب في السيرة الذاتية عند العرب، وقد توفرت فيه معظم مقومات هذا الفن كالأمانة في الحديث، والصدق في القول غالباً فيما يتصل بحياته، وتصوير الحياة بمواقفها وأشخاصها تصويراً حياً بارعاً، والقدرة على استحضار الوقائع الماضية بأسلوب سهل بسيط مشوّق ينوّع فيه بين السرد والوصف والحوار، والأساليب الإنشائية، فضلاً عن دقة الملاحظة، والبراعة في إيراد النكتة بأسلوب قصصي ممتع^(٢) .

وقد استعمل أسامة اللهجة المحكية في بلاد الشام، متخلياً عن المحسنات البديعية والتكلف وعن أسلوبه الرفيع في مؤلفاته الأخرى، وفي دعائه لصالح الدين في نهاية الباب الأول من الكتاب^(٣) .

وهو يتوقف - أحياناً - عن سرد قصصه ليلقى بالعبارة التي اكتسبها من مجموعة متجانسة من القصص^(٤)، وأحياناً أخرى يقدم العبارة ثم يسرد القصص التي تبرهن على صحتها^(٥) .

واستعمل أسامة في كتابه الكلمات الإفرنجية^(٦) والفارسية^(٧)، والتركية^(٨)، واليونانية^(٩) المعربة، التي كانت قد ألفتها الآذان، وقبلتها الأذواق آنذاك .

ومما يؤخذ على هذه السيرة أن المؤلف لم يرتب مذكراته في « الاعتبار »

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ١٠٣-١٠٤ .

(٢) انظر مثلاً المصدر السابق: ص ١٣٢-١٣٣، ١٣٥-١٣٨ .

(٣) المصدر السابق: الاعتبار: ص ١٦٤-١٦٦ .

(٤) المصدر السابق: ص ٩٠ .

(٥) المصدر السابق: ص ١٥٤ .

(٦) المصدر السابق: ص ٥١، ٦٧ .

(٧) المصدر السابق: ص ٥٢، ١١٧ وغيرهما .

(٨) المصدر السابق: ص ١٠١، ١٠٦ وغيرهما .

(٩) المصدر السابق: ص ٥٧، ١٠٩ وغيرهما .

ترتيباً زمنياً وإنما كتبها في شكل أخبار وحكايات وقصص من هنا وهناك وكان يستطرد فيها من موضوع إلى آخر ولكنها مع ذلك تتصل بحياته ورحلاته وحرابه وعلاقاته بالخلفاء والملوك والأمراء والوزراء وغيرهم منذ فجر حياته حتى أصيلها .

ووردت في الكتاب أخطاء نحوية وصرفية^(١)، وألفاظ وعبارات عامية^(٢) .

كما أنه نقل أخبار كرامات الأولياء ومناقبهم، وحكايات الرؤى والأحلام، كما سمعها دون تحقيق أو مناقشة .

وهدف أسامة من هذا الكتاب، وما فيه من حكايات - كما يقول فيليب حتي-^(٣) إلى عظة أراد أن يرسخها في ذهن القارئ وهي الإيمان بالقضاء والقدر « وأن الله مقدر الأقدار، وموقت الآجال والأعمار » فيجب أن لا يظن ظاناً « أن الموت يقدمه ركوب الخطر، وتؤخره شدة الحذر»، ويرى في طول عمره ونجاته من الموت أكبر مصداق لرأيه، وأعمق عظة للعاقل^(٤)، وأن « النصر في الحرب من الله - تبارك وتعالى - لا بترتيب أو تدبير، ولا بكثرة نفير ولا نصير»^(٥) .

وربما هدف من التركيز على هذا الأمر إلى دفع المسلمين إلى الجهاد، وقتال الفرنج الغزاة دون خوف أو وجل، ولا سيما أن صلاح الدين كان - آنذاك - يعد العدة ويجمع الجيوش لتحرير الأرض المقدسة من أيدي الفرنج، فأراد أن يشارك في الجهاد بكتابه هذا بعد أن أصبح هراً وعاجزاً عن مباشرته بنفسه .

وللكتاب - كما رأينا - قيمة أدبية كبيرة فهو من كتب السيرة الذاتية المشوقة النادرة في التراث العربي القديم، حتى قال فيه فيليب حتي: « بين كتب الأدب العربي سير عددها غير قليل ولكنها كلها تتضاءل أمام سيرة أسامة بقلم

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ٢٢، ٧٥، ١٧٧ وغيرها .

(٢) المصدر السابق: ص ٤٤، ٥١ وغيرهما .

(٣) فيليب حتي: مقدمة الاعتبار: ص هـ .

(٤) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ١٦٢-١٦٣ .

(٥) المصدر السابق: ص ١٤٧ .

نفسه»^(١) وقال فيه إحصان عباس «ولا أعرف لهذا الكتاب ضرباً في نوع المتعة التي ينقلها إلى القارئ، وفي البساطة المتناهية التي يتلقاها بها...»^(٢).

وقال فيه عباس حسن «... سيظل الاعتبار من أعظم الكتب التي أنجبتها قريحة الإنسان تشويقاً وإمتاعاً»^(٣). وفي الحقيقة إن كتاب الاعتبار أشهر كتاب في السيرة الذاتية في أدبنا القديم، وأكثرها تشويقاً وإمتاعاً، ومن أبسطها لغة، وأسلسها أسلوباً.

وعرف العرب - أيضاً - السيرة الموضوعية منذ أن كتب ابن إسحاق (١٥٢ هـ) سيرة النبي (ﷺ). وفي العصر الأيوبي كتب القاضي بهاء الدين بن شداد سيرة صلاح الدين الأيوبي في كتاب سماه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، وجعله في قسمين:

الأول: يقع في ٣٠ صفحة، ذكر فيه مولده، وخصائصه وخلالاه^(٤)، فذكر أنه ولد في قلعة تكريت سنة ٥٣٢ هـ، ثم تحدث عما شاهده من مواظبته على القواعد الدينية، وملاحظته للأموال الشرعية، فكان -رحمه الله- حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى، «مواظباً على الصلاة مع الجماعة وعلى السنن الرواتب»، وعند موته «لم يحفظ ما وجبت عليه الزكاة» لأن صدقة النفل قد استنفدت جميع أمواله، وأما الصوم فقد كانت «عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة... ولم ينزل يصوم حتى قضى ما كان عليه»^(٥).

وكان محباً لسماع القرآن العظيم، والحديث الشريف وقراءتهما، معظماً لشعائر الدين، مبغضاً للفلاسفة، والمعطلة والدهرية، ومعاندي الشريعة، حسن

(١) فيليب حتى: مقدمة الاعتبار: ص ٧.

(٢) إحصان عباس: فن السيرة: ص ١٢٨.

(٣) عباس حسن: أسامة بن منقذ: ج ٢: ص ٧٣.

وانظر أيضاً: جمال الدين الألوسي: أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية: ص ١٠٥.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص ٥-٣٤.

(٥) المصدر السابق: ص ٨.

الظن بالله تعالى منيباً إليه، وكان « عادلاً، رؤوفاً، رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي... » كريماً « يعطي في وقت الضيق، كما يعطي في حال السعة... » وكان محباً للجهاد « عظيم الاهتمام به »^(١).

الثاني: يقع في ٢١٤ صفحة: تحدث فيه عن أحواله ووقائعه وفتوحاته^(٢)، فبين دور صلاح الدين في حملات عمّه أسد الدين شيركوه الثالث إلى مصر، ثم ذكر وفاة أسد الدين وانتقال الوزارة في مصر من بعده إلى صلاح الدين، وإلغاءه للخلافة الفاطمية فيها، وضمّه مصر لسلطنة نور الدين محمود، وللخلافة العباسية، ثم ما قام به من أعمال في مصر، ثم فتحه اليمن، ثم توليه للسلطنة في مصر والشام بعد وفاة نور الدين محمود، ثم وصفه لغزواته للإفرنج في عين جالوت والكرك ثم معركة حطين الحاسمة سنة ٥٨٣هـ وما تلاها من استيلائه على معظم الساحل الفلسطيني، ثم فتحه العظيم لبيت المقدس، ثم مواجهاته المتتالية للإفرنج بعد أن تدفقت إليهم النجدات من أوروبا، ثم وصفه لحصارهم الطويل لعكا ولاستيلائهم عليها، وغدرهم بأهلها، وفتكهم بهم، ثم فشل الفرنج في استرداد بيت المقدس ثم إتمام الصلح بين صلاح الدين والفرنج سنة ٥٨٨هـ، ثم عودته لدمشق ووفاته فيها سنة ٥٨٩هـ.

وهكذا فقد أشاد ابن شداد في القسم الأول من هذه السيرة - كما رأينا - بصفات صلاح الدين الخلقية الرفيعة، ثم اهتم في القسم الثاني بالمعارك الحربية التي خاض غمارها منذ عودته إلى الشام في سنة ٥٨٢هـ حتى وفاته، ورتبها ترتيباً زمنياً دقيقاً، فجاءت هذه السيرة تاريخاً لحياة هذا البطل المسلم الذي استطاع أن يواجه الغزاة الفرنج ويهزمهم، ويحرر بيت المقدس والمسجد الأقصى المبارك، ومعظم الساحل الشامي المحتل منهم.

وقد استطاع ابن شداد أن يصور شخصية بطله وعواطفه ومشاعره، وأن يسبر

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص ١، ٧-١٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٥-٢٤٨.

غوره، من خلال ما أورده من قصص وحكايات ومشاهد فقد كان - أحياناً - يقدم الصفة ثم يأتي بشاهد عليها، ومن ذلك قصة الأسير الفرنجي الطاعن في السن الذي أطلق صلاح الدين سراحه^(١).

وكان يقدم - أحياناً - الحكاية كشاهد ثم يستخلص منها الصفة المناسبة، ومن ذلك قصة الرضيع الذي سرقه لصوص مسنمون من خيام الفرنج، فجاءت أمه إلى صلاح الدين وأخبرته بقصتها، فأمر بالبحث عنه ولم يغادر مكانه حتى أعيد الرضيع إلى أمه، ثم أمر بحملهما على فرس وإلحاقهما بعسكر الفرنج^(٢).

وكان - أحياناً أخرى - يقدم المشهد ويترك للقارئ أن يستخلص بنفسه ما يضطرم في قلب هذا البطل من مشاعر، كما في قوله في وصف حال صلاح الدين عندما اتضح له ما حل بأهل عكا من ضعف، وما ينتظرهم من أهوال عندما زحف الفرنج لاحتلالها: «... فلما علم السلطان ذلك، ركب وركب العسكر بأسرهم، وجميع الراجل والفارس، ووعدهم ورغبهم، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر عليهم، وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم بين الجانبين، وهو - رحمه الله - كالوالدة الثكلى يتحرك بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد... وينادي بنفسه: «يا للإسلام» وعينه تذر فان الدمع، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم، اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة...»^(٣).

وعلى الرغم من إعجاب ابن شداد العظيم بمناقب بطل سيرته وجهاده، حتى أنه تمنى عند وفاته أن يفتديه بنفسه^(٤)، إلا أن هذه السيرة امتازت بالأمانة العلمية والصدق، والدقة إلى حد كبير والبعد عن التزويد والمبالغة، لأن كاتبها

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص ١٥٦.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥٨-١٥٩.

(٣) المصدر السابق: ص ١٦٦.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٤٦.

كان رجلاً تقياً ونزيهاً، وقد عينه صلاح الدين قاضياً لعسكره في سنة ٥٨٤هـ، فظل ابن شداد ملازماً له منذ ذلك التاريخ حتى وفاته، فشهد بنفسه معظم الحوادث التي رواها أو سمعها ممن يثق فيه من الرواة، وفي ذلك يقول: «.. رأيت أن اختصر من ذلك (أي مما شاهده من حياة صلاح الدين) على ما أملاه علي العيان، أو الخبر الذي يقارب مضمونه درجة الإيقان...»^(١).

أما إذا لم يشاهد الحادثة بنفسه فكان يشير إلى ذلك مثل قوله عن وقعة الرمل: «... وهذه الواقعة لم أحضرها، فإني كنت مسافراً، وما مضى من الوقعات شاهدت منها ما يشاهده مثلي، وعرفت الباقي مثل ما يعرفه الحاضر في هذه الأمور»^(٢).

وقد صورت هذه السيرة حياة سلطان ملتزم بمثل الإسلام وقيمه العليا، وبطل مجاهد من أعظم أبطال المسلمين، استطاع أن يحرر بيت المقدس ومعظم فلسطين وسواحل بلاد الشام من الإفرنج، وأن يصد هجماتهم اللاحقة، وقد توفرت فيها من خصائص السيرة الموضوعية - كما رأينا - محاولة سبر غور البطل، وتحليل نفسيته، وتعليل أعماله وتصرفاته، للوصول إلى حقيقة خلاله وشمائله، والقدرة على استحضار الوقائع الماضية وتصويرها بأسلوب سهل بسيط، خال من الغرابة والتعقيد، والتصنع البديعي الذي كان سائداً في عصره، مما جعلها من أشهر السير الموضوعية في أدبنا القديم.

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص ٤.

(٢) المصدر السابق: ص ١١٦.

الرسائل

ازدهرت في هذا العصر كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية والأدبية .

الرسائل الديوانية :

ارتقت دواوين الإنشاء في هذا العصر، وأحكم تنظيمها، ولا سيما ديواني الإنشاء في دمشق والقاهرة، فقد علا شأن ديوان الإنشاء في دمشق في عهد نور الدين محمود، ثم في عهد الأيوبيين من بعده، وتولى رئاسته أو عمل فيه أدباء مشهورون مثل : عبدالله بن أحمد بن الحسين بن النقار الدمشقي (٥٦٨هـ) أو (٥٦٩هـ)^(١)، وأبي اليسر شاکر بن محمد التنوخي المعري الدمشقي (٥٨١هـ)^(٢)، والعماد الكاتب الأصفهاني (٥٩٧هـ)^(٣)، وجمال الدين عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي (٦٢٥هـ)^(٤)، كما تولى ضياء الدين بن الأثير (٦٣٧هـ) الوزارة والكتابة للملك الأفضل علي بن صلاح الدين حتى تنحيته عن ملك دمشق في سنة ٥٩٢هـ^(٥).

وكان ديوان الإنشاء في القاهرة مزدهراً في زمن الدولة الفاطمية، وتولاه مشاهير الكتاب آنذاك، وعندما تولى صلاح الدين الأمر في مصر جعل القاضي الفاضل (٥٩٦هـ) وزيره ومستشاره وكاتبه، ثم كتب الفاضل بعده لابنه الملك العزيز عثمان، ولأخيه الملك العادل أبي بكر^(٦)، وتولى الأسعد بن مماتي

(١) هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الحسين بن إسحاق النقار، ولد بطرابلس سنة (٤٩١هـ)، ونشأ

وتأدب فيها وعندما غزاها الإفرنج ارتحل منها، واستوطن في دمشق، ثم تولى ديوان الإنشاء فيها،

وكان جيد النثر، وله نظم مقبول، وتوفي في سنة ٥٦٨ أو ٥٦٩ هـ (العماد الكاتب : خريدة القصر

: قسم شعراء الشام: ج١ : ص ٣١٤-٣١٥، وابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق: ج٧ : ص ٢٧٧).

(٢) العماد الكاتب : خريدة القصر : قسم شعراء الشام: ج٢ : ص ٣٤-٣٥.

(٣) معجم الأدباء : ج١٩ : ص ١١-٢٩.

(٤) كمال الدين الأديوي : الطالع السعيد : ص ٣٠٥، وابن شاکر: فوات الوفيات : ج٢ : ص ٣١٢.

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان : ج٥ : ص ٣٨٩-٣٩٧.

(٦) العماد الكاتب : خريدة القصر : قسم شعراء مصر: ج١ : ص ٣٥.

(-٦٠٦هـ) نظارة الدواوين^(١). وممن تولى رئاسة ديوان الإنشاء - أيضاً - البهاء زهير (-٦٥٦هـ)^(٢) وإبراهيم بن لقمان (-٦٩٣هـ)^(٣).

وقد صنّف بعض هؤلاء الكتّاب مؤلفات عديدة في صناعة الكتابة والإنشاء، مثل كتاب «قوانين الدواوين» لأسعد بن مماتي الذي جعله في خمسة عشر باباً، وتناول في الباب الأول منه: «فضل الكتابة والكتاب، وما جاء في ذلك من الآيات المحكمات والأخبار المرويات، وذكر جماعة من كان يكتب للأنبياء من الأنبياء عليهم السلام، ونعت أسماء من كان متسماً بها من كتّاب الخلفاء، وعلماء الإسلام...» وما يجب «على الكتاب ولهم، وإشارة إلى ما يكمل به في الخدمة تأديبهم إلى ما يتعلق بذلك ويتصل...»^(٤) وذكر في الباب الثامن أسماء المستخدمين «حملة الأقلام» وما يلزم كلا منهم^(٥)، واستعرض في التاسع المعاملات السلطانية، والجهات الديوانية^(٦)، وتحدث في الثالث عشر عن أقسام الكلام المنثور، وفي الرابع عشر عن أنواع الورق التي كان يحتاج إليها الكتاب آنذاك^(٧)، وتحدث في الأبواب الباقية عن أمور مصر الأخرى.

وكتاب «معالم الكتابة ومغامم الإصابة» لابن شيث القرشي الذي جعله في ثمانية أبواب، وتحدث فيه عن آداب كتّاب الملوك وأركان الدولة^(٨) وعن طبقات التراجم، وافتتاحات الكتب وأصول التخاطب بين المتكاتبين^(٩)، ووضع الخط

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ١: ص ٢١٠-٢١٣.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ٢: ص ٣٣٢-٣٣٨، والبداية والنهاية: ج ١٣: ص ٢٢٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية: ج ١٣: ص ٣٣٧.

(٤) أسعد بن مماتي: قوانين الدواوين: ص ٦١-٦٩.

(٥) المصدر السابق: ص ٢٩٧-٣٠٦.

(٦) المصدر السابق: ص ٣٠٧-٣٥٧.

(٧) المصدر السابق: ص ٥٨.

(٨) ابن شيث القرشي: معالم الكتابة: ص ٩-٣١.

(٩) المصدر السابق: ص ٣٢-٥٢.

وحروفه، وبري القلم ومسكه^(١)، وعن البلاغة وما يتصل بها^(٢)، وعن الألفاظ التي يسد بعضها مقام بعض^(٣)، والأمثال التي يحتاج إليها الكاتب^(٤)، وعن الأخطاء التي يجب أن يتحرز الكاتب من السقوط فيها^(٥).

وألف ضياء الدين بن الأثير كتاب «المفتاح المنشا لحديقة الإنشا» وجعله في مقدمة وباين، وقد تحدث في المقدمة عن منزلة الإنشاء، ثم بين الصفات الرفيعة التي يجب أن يتحلى بها الكاتب^(٦)، ثم تحدث في الباب الأول عن مراتب الكتب والمخاطبات، وكيفية وضع الأسماء، وأين محلها^(٧)، وتكلم في الثاني على الأدعية التي تصدر بها الكتب، ثم شرح فيه المصطلحات التي وردت في الكتاب، ثم ختمه بأبيات شعرية في أغراض مختلفة تشلح للتمثل بها في أثناء الكتابة^(٨)، وألف كتاب «الوشى المرقوم في حل المنظوم» الذي حل فيه أبياتاً شعرية وآيات قرآنية كريمة وأخباراً نبوية شريفة.

وألف كتاب «الأمثال»^(٩)، وكتاب «الأخبار النبوية» الذي جمع فيه أكثر من ثلاثة آلاف خير من الأخبار النبوية^(١٠)، وكتاب «الأدعية المائة المختارة»^(١١) لكي يستفيد منها الكتاب في صناعة الإنشاء.

وازدهرت الكتابة الديوانية، وعلا شأنها كثيراً حتى قال فيها ضياء الدين بن

(١) ابن شيث القرشي: معالم الكتابة: ص ٥٢-٦١.

(٢) المصدر السابق: ٦١-٨٥.

(٣) المصدر السابق: ٨٥-١٠٤.

(٤) المصدر السابق: ١٠٥-١٣٠.

(٥) المصدر السابق: ص ١٣١-١٩٢.

(٦) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشا: ص ١٤-١٦.

(٧) المصدر السابق: ص ١٧-٢٠.

(٨) المصدر السابق: ٢١-٥٥.

(٩) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ١: ص ٦١-٦٢.

(١٠) ضياء الدين بن الأثير: الوشى المرقوم: ص ٢٦، ٥٠.

(١١) حقق بقاياه د. هلال ناجي، ونشره مع كتاب «المفتاح المنشا لحديقة الإنشا».

الأثير: «... إن أشرف صناعات الممالك وأسناها، وأفضل درجات المملكة وأعلاها، وأمير ربها وأبهاها منازل الإنشاء الجامعة للأشياء الذي له قوام الملك وضبط قواعده، والكف لكف النسيان لساعده، وهو لها اليد اليمنى التي بها الأخذ والعطاء، والمنع والإمضاء، والبسط والقبض، والفصل والفض، والسر والجهر، والنهي والأمر، وهو على كل حال أس النظام، وحفظ الأنام...»^(١). واشتروا أن يتحلى الكاتب الناجح بصفات رفيعة ومثل عليا^(٢).

وقد تنوعت المكاتبات الديوانية آنذاك، فشملت كل شؤون الدولة الداخلية والخارجية مثل التوقيعات، والمنشورات، والمبايعات والأيمان، وكتب الجهاد والنفير والاستنجاد، والفتوح والعهود والمواثيق والتقاليد وغير ذلك.

أما التوقيعات فقد قلَّ اهتمام مؤرخي الآداب في هذا العصر بإيرادها في كتبهم، فلم أجد منها إلا القليل النادر، ومن ذلك ما كتبه نور الدين محمود على رقعة رفعت إليه بأن تاجراً موسراً قد مات، وترك ثروة تقدر بعشرين ألف دينار أو تزيد، وليس له سوى ولد واحد عمره عشر سنوات، واقترح في الرقعة أن تضم تلك الثروة إلى بيت المال، حتى يكبر هذا الطفل فيرضى بجزء منها فقط، ويضاف الباقي إلى بيت المال، فوقع نور الدين: «أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعنه الله»^(٣).

ومنها ما وقعه صلاح الدين الأيوبي على رقعة، رفعها إليه عماد الدين بن زنكي^(٤) صاحب سنجار^(٥) يطلب منه الإذن له بالعودة مع جيشه إلى

(١) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشأ: ص ١٤، وانظر أسعد بن مماتي: قوانين الدواوين: ص ٦١-٦٩.

وابن شيث: معالم الكتابة: ص ٩.

(٢) الأسعد بن مماتي: قوانين الدواوين: ص ٦٦-٦٩، وابن شيث القرشي: معالم الكتابة: ص ٩-٢٣، وضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشأ: ص ١٤-١٥.

(٣) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج ١: ق ١: ص ٣١.

(٤) عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن الشهيد عماد الدين زنكي، صاحب سنجار ونصيبين والخابور، كان ديناً خيراً إلا أنه كان شديد التعصب على مذهب الشافعي، يكثر من ذم الفقهاء الشافعية ويقع فيهم، وقد توفي سنة ٥٩٤ هـ (ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١٩١).

(٥) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة الفراتية (معجم البلدان: ج ٣: ص ٢٦٢).

إمارته، وكانت رسل الفرخ متواترة بينهم وبين صلاح الدين في أمر الصلح، فوقع صلاح الدين في ظهرها:

من ضاع مثلي من يدي — به فليت شعري ما استفادا»^(١)

ومنها ما وقع به صلاح الدين على رقعة للقاضي الفاضل يستأذنه فيها بالذهاب إلى الحج، فكتب بخطه: «على خيرة الله - تعالى - يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً»^(٢).

ومع أن صلاح الدين كان «يجلس للعدل كل اثنين وخميس في مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء... وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل... ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه...»^(٣)، إلا أنه لم يصلنا منها شيء.

وتمتاز هذه التوقيعات القليلة بأنها موجزة، ومن جوامع الكلم، وتحول قلتها بيننا وبين الحكم على هذا الفن حكماً موضوعياً دقيقاً.

أما الرسائل الديوانية الأخرى، فقد ازدهرت كثيراً، ومن أمثلة منشورات ذلك العصر، المنشور الذي أسقط بموجبه نور الدين جميع المكوس والضرائب عن أهل الموصل عندما استولى عليها سنة ٥٦٦ هـ، طلباً لرضاء الله، وقناعة بالمال الحلال، وتخفيفاً عن الرعية، ومنه: «... وقد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال، فسحقاً للسحت، ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضا الرب، ويقصي من محل القرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه، وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة، في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبة... وإطلاق كل ما جرت العادة

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص ١٤٦.

(٢) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج ٢: ص ٧.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص ١٣.

بأخذه من الأموال المحظورة، خوفاً من عواقبها الرديئة المحظورة، فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جارياً، ولا عمل لا يكون به الله راضياً، إيثاراً للشواب الآجل على الخطام العاجل...»^(١).

ومن كتب الاستنجاد والدعوة إلى النفير والحرب الكتاب الذي أرسله صلاح الدين إلى ملوك الأطراف داعياً إياهم إلى الجهاد، والمشاركة في مواجهة الإمدادات الصليبية المتدفقة من الغرب، ومنه: «... والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك همم المؤمنين في تسكين ثائرهم، وتخريب عامرهم، وما دام البحر بمدهم، والبر لا يصدهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم، فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيره أهل اليقين؟! وما ينقضي عجبنا من تضايف المشركين، وعود المسلمين، فلا ملبي منهم لمناد، ولا مثقف لمناد! فانظروا إلى الفرخ أي مورد وردوا؟! وأي حشد حشدوا؟! وأي ضالة نشدوا؟! وأي نجدة أنجدوا؟! وأي أموال غرموها وأنفقوها؟!... والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا، وكسلوا ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء الحمية من الأقباط والأداني على أنا بحمد الله لنصره راجون، وله بإخلاص السر وسر الإخلاص مناجون، والمشركون بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون...»^(٢).

ومن كتب التهاني بالفتوح والنصر المشهورة ما كتبه القاضي الفاضل^(٣)، والعماد الكاتب^(٤)، وضياء الدين بن الأثير^(٥) من كتب عند فتح بيت المقدس على يدي صلاح الدين إلى الديوان العزيز ببغداد، وما كتبه الملك الناصر داود

(١) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج ١: ق ٢: ص ٤٧٩-٤٨٠.

(٢) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج ٢: ص ١٤٨.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٤٩٠-٥٠٢.

(٤) المصدر السابق: ج ٦: ص ٥١٥-٥١٩.

(٥) رسائل ابن الأثير: ص ١٤٩-١٥٦ (تحقيق المقدسي).

عندما فتح بيت المقدس ثانية إلى الخليفة في بغداد^(١).

ومنها أيضاً ما كتبه الفاضل من دمشق إلى صلاح الدين مهنتاً له بالنصر في معركة حطين، وواصفاً له مدى ابتهاج المسلمين بذلك، فقد غمرتهم مشاعر الفرح والسرور، فحروا لله ساجدين شاكرين على هذه النعمة الكبرى، وفاضت عيونهم سروراً وابتهاجاً، ومنه «... ليهن المولى أن الله قد أقام به الدين القيم، وأنه - كما قيل - أصبحت مولاي، ومولى كل مسلم، وأنه قد أسبغ عليه نعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين: ملك الدنيا وملك الآخرة، كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها، والدموع لم تمسح من خدودها، وكلما فكّر الخادم أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه إن الله ثالث ثلاثة، يقال اليوم فيه أنه الواحد، جدد لله شكراً، تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جفنه، وجزى يوسف^(٢) خيراً عن إخراجة من سجنه...»^(٣).

وقد حفلت كتب الفتوح والتهاني والحرب والنفير والجهاد - كما رأينا - بالعواطف الحارة الصادقة التي كانت تمور بها صدور كتابها تجاه هذه الحوادث الجليلة، خلافاً لما يراه الدكتور عمر موسى باشا بأن هذا النوع من النثر «يعتمد أكثر ما يعتمد على الوصف الدقيق، وإبراز كل صغيرة وكبيرة، ويبدو أنه يفتقر إلى الحرارة العاطفية، وينقصه الشعور الذاتي، ويتضاءل فيه الإنفعال النفسي، وهي التي نجدتها في بحث النثر الذاتي»^(٤).

(١) عز الدين بن شداد: الأعلام الخطيرة: تاريخ مدينة دمشق: ص ٢٢٦-٢٣٣.

وقد درس هذه الرسائل كثير من الباحثين منهم: عبداللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية: ص ١٧٥-١٩٤، وعمر الساريسي: نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية: ص ٦٥-٧٨، وعبد الجليل عبد المهدي: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ص ٣٣٢-٣٧٨، وحلمي عبد الفتاح: أصداء الحروب الصليبية في أدب القاضي الفاضل: ص ٢١٠-٢١٥.

(٢) يعني صلاح الدين يوسف.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ٨٢-٨٣.

(٤) عمر موسى باشا: أدب الدول المتتابعة: ص ٧٩٩.

ومن كتب التقاليد ما كتبه ضياء الدين بن الأثير إلى أحد الولاة على لسان الملك الأفضل علي بن صلاح الدين بولاية دمشق، حيث افتتحه بحمد الله على نعمه، والصلاة على نبيه محمد، ثم عدد مصاعب الإمرة، وصورَّ جسامة مسؤولياتها، ثم أشاد بصفات هذا الوالي الحميدة، ثم ذكر ما لا يخفى عليه من واجبات رعيته عليه كالأنانة والصدق والرأفة والرفق بها، والبعد عن البطش أو فاحش القول عند الغضب، ثم حثَّه على التواضع، وقضاء حقوق المسلمين عليه . . . ثم بيّن أن هناك أموراً لا بُدَّ من التأكيد عليها، فقال: «إلا أن ها هنا ما لا بد من تحرير ذكره، وتقرير أمره، والخروج من عهده، والبلاغ في حمل إصره، ونحن فيما نذكره على المعذرة محمولون، وقد جعلناه حجة بيننا وبينك يوم يقال: ﴿وقفوههم إنهم مسؤولون﴾»^(١). . ثم طلب منه أن يحكم بين رعيته بالعدل، ثم أوصاه بأهل الذمة خيراً، فعليه أن يعاملهم بالعدل، وأن يحفظهم في نفوسهم وأعراضهم وأموالهم، وأن يترك لهم حرية العبادة، وأن يحسن السيرة فيهم ثم أوصاه بالاهتمام بالفقراء المسلمين وتوزيع الصدقات عليهم في مواعيدها دون تأخير أو مطال فقال: «فحال الفقراء أرق من أن يضيق الرزق عليهم بتعويقه، وهي كالثوب الخلق الذي يغلب صاحبه بتمزيقه، وصاحب العافية يغتر بالسهول والحزون، والدعة والسكون، ومن لم تظماً كبده، ولا جاعت بطنه، لم يدر ما ظمأ الأكباد وجوع البطون». ثم دعاه إلى محاربة داء الرشوة الوبييل والمرتشين فقال: «وها هنا كبيرة هي من أعظم الكبائر، وقد فشت في الناس حتى صارت صغيرة من الصغائر، وذلك أن ولاة السوء قد ألفوا تناول الرشوة التي تغير حكماً، وتختم على القلوب ختماً، وسماها الله سحتاً وإثمًا . . . فاحص على هؤلاء الأنفاس عدداً، واسلك بين أيديهم ومن خلفهم رصدًا، وكن كالطائر الذي يظن كل شيء حجراً ويدا» ثم دعاه إلى الاكتفاء بجمع الأموال من الرعية من الأبواب الحلال فقط، ثم ختم التلقيد بالدعاء قائلاً: «والله تعالى ينظمننا في سلكه، ويطهرنا وأعمالنا من شائبة الرياء التي هي معدودة في شركه، ويجعلنا

(١) سورة الصافات: الآية: رقم (٢٤).

من صالحى الملوك، حتى نكون ممن صلح في نفسه ومملكه...»^(١).

التقويم الفني:

بنية الرسالة الديوانية:

تتكون الرسالة الديوانية من مقدمة وعرض وخاتمة، فكان كتاب هذا العصر كسابقهم يفتتحون رسائلهم إذا كانت صادرة من الأداني إلى الأعالي بالبسملة « تبركاً بالابتداء بها، وتيمناً بذكرها »^(٢)، لقول رسول الله (ﷺ): « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أقطع »^(٣).

أما إذا كانت الرسائل صادرة « من الأعالي إلى الأسافل، فإنه يجوز أن تستفتح بأي شيء من أسامي الرب سبحانه وتعالى »^(٤). ثم يتبعون البسملة بحمد الله – تعالى – امتثالاً لقوله (ﷺ): « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجزم »^(٥).

ويرى ابن الأثير أن تكون « التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب »^(٦)، وكان بعض الكتاب يستحسنون تكرار التحميد، وأن يكون ذلك – كما يقول ابن شيث –: « ... بحسب النعمة المكتوب بسببها من فتح أو نحوه »^(٧).

ثم تُبدأ الرسالة بعد ذلك بمقدمة مناسبة ممهدة للموضوع الرئيس، لأنها ركن

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ١٥٧-١٦٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٢١٤.

(٣) المصدر السابق: ج ٦: ص ٢١١، واقطع: ناقص البركة (صبح الأعشى: ج ٦: ص ٢١١).

(٤) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشأ: ١٧٠.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٢١٥.

(٦) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ٣: ص ١٠٨.

(٧) ابن شيث: معالم الكتابة: ص ٤٨.

من أركان الكتابة الديوانية» ولا يحسن بالكاتب أن يُخلي كلامه – وإن كان وجيزاً من مقدمة يفتتحه بها...»^(١)، ومن أركان الكتابة – أيضاً – أن يكون مطلع الكتاب «عليه جدة ورشاقة، فإن الكاتب من أجاد المقطع والمطلع»^(٢)، فجرت سنة الكتاب في جميع الكتب كالفتوح والتنهاني والتعازي على ذلك، ويجب أن تكون المقدمة «مشملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض»^(٣).

وقد تعددت أساليب الكتاب في افتتاحات الرسائل ومنها:

الدعاء للمخاطب: وقد غلب هذا الافتتاح على مقدمات أكثر الرسائل حتى أن ابن الأثير ألف للمتدربين على صناعة الإنشاء كتاباً كاملاً سماه «الأدعية المائة المختارة» ضمنه مائة دعاء «لا يخلو كل دعاء منها من معنى آية، أو خبر نبوي أو بيت شعر سائر أو مثل عربي، وربما اجتمع في أحد الأدعية الثلاث»^(٤)، كما قصر فصلاً كاملاً من كتابه «المفتاح المنشا لحديقة الإنشا» على الأدعية التي تفتتح بها الرسائل^(٥)، ليستعملها كتاب الرسائل الديوانية، ولينسجوا على منوالها. واشترط ابن الأثير في الدعاء أن يكون «مشتقاً من المعنى الذي بني عليه الكتاب»^(٦)، دالاً على المقصود به.

وإذا كانت الرسالة موجهة للخليفة أو للديوان العزيز، يكون الدعاء فيها «بما فيه معنى دوام العز والسلطان، وبسط الظل، وما أشبه ذلك»^(٧)، ويقرن الدعاء بمدح الخليفة، والإشادة بمآثره على المسلمين، ومن ذلك قول ابن الأثير في رسالة كتبها معارضاً لرسالة القاضي الفاضل للديوان العزيز بمناسبة وقعة حطين، وفتح

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٢٦٧.

(٢) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ١: ص ١٢١.

(٣) الفلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٢٦٨.

(٤) ضياء الدين بن الأثير: بقايا كتاب الادعية المائة المختارة: ص ٥٩.

(٥) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشا: ص ١٧-٣٩.

(٦) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ١: ص ١٢١.

(٧) الفلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٤٨٩.

طبرية: «أدام الله سلطان الديوان العزيز النبوي، وجدد عهد الإسلام في عصره، وعضده منه بسيف عمره، ورأى عمره، وأعاد بدولته ما مضى من غرة دهره، وجعل مآثرها نجوم ليله وشمس نهاره وطلعة فجره، ولا زالت الأقدار تهيئ لأوليائه في كل يوم مطلباً، وتجدد لهم من أسباب السعادة مركباً، وتري كلاً منهم من بركات خدمتها ما يقول معه ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً﴾^(١)، هذه البشرى سائرة إلى الأبواب العزيزة مجدها الله، ولم تأت حتى انتظمت صدورها بغرر الجياد... وكتابها يروي خبر النصر الغريب، في الحديث الصحيح، ينقله مسنداً عن أقلام الأسل وورق الصفيح...»^(٢).

أما إذا كانت الرسالة موجهة إلى غير الخليفة، كالسلاطين أو الأمراء أو الملوك فيكون الدعاء فيها حسب ما يناسب المخاطب من الألقاب: كالمقام، أو المقر، أو الجنب، أو المجلس السامي، ومثال ذلك قول ابن الأثير في مقدمة كتاب كتبه إلى أحد الأمراء: «أعلى الله محل المجلس السامي الحسامي، ورفع مجده فوق السحاب، وجعل كيد أعدائه إلى تباب، ولا أحوج شبيبة جدّه إلى خضاب، وكتب له عمراً لا يعدّ بحساب، وفداه بالقوم الذين لا يستأذن لهم على حجاب، وسير ذكره على أجنحة الرياح لا على ظهور الركاب، وخصه بالمساعي التي تدرك بعفوها جهد الطلاب، وإذا سوبقت مسح منها خدود سابقة عراب...»^(٣).

وقد تفتتح الرسالة بآية كريمة مناسبة للموضوع، فقد افتتح الكتاب كثيراً من رسائلهم - ولا سيما رسائل الجهاد - بالآيات المناسبة، ومن أمثلة ذلك افتتاح القاضي الفاضل للرسالة التي بعث بها على لسان صلاح الدين إلى نور

(١) سورة يوسف: الآية رقم (٤).

(٢) رسائل ابن الأثير: ص ٦٦ (تحقيق القيسي وناجي)، وانظر أيضاً المصدر نفسه: ص ٧٠، ٧١، ٧٣، ورسائل ابن الأثير: ص ١٧، ٢٠، ٢١، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٥٧، ٢٨٤ وغيرها (تحقيق المقدسي).

(٣) رسائل ابن الأثير: ص ٣١ وغيرها: (تحقيق المقدسي).

الدين محمود مبشراً بانتصاره على الفرنج في غزاة سنة ٥٦٦هـ بالآية: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾ (١).

أو أن تبدأ المكاتبة بخطبة قد يبدوها الكاتب بآية قرآنية، ثم بحمد الله تعالى، وأفضلها ما تكرر فيه الحمد ثلاث مرات (٢) وهذا الأسلوب - في رأي القلقشندي - أفضل الأساليب وأعلاها (٣).

أو أن تفتتح - أيضاً - بالصلاة والسلام على الخليفة - على مذهب من يجيز الصلاة على غير الأنبياء - ومثال ذلك قول القاضي الفاضل على لسان صلاح الدين مبشراً الخليفة بفتح بلد من بلاد النوبة: «صلوات الله التي أعدها لأولياءه وذخرها، وتحياته التي قذف بشهبها شياطين أعدائه، ودحرها، وبركاته التي دعا بها كل موحد فأجاب، وانقشع بها غمام الغم، وظلام الظلم...» (٤).

وقوله في مقدمة رسالة ثانية: «سلام الله الأطيب، وبركاته التي يستدرها الحضرة والغيب، وزكواته التي ترفع أوليائه إلى الدرَج، ونعمه التي لا تجعل على أهل طاعته في الدين من حرج، على مولانا سيد الخلق، وساد الخرق...» (٥).

أو أن تستهل الرسالة بالفاظ مثل: أصدرت المكاتبة، أو أصدرناها، أو أصدرنا هذه المكاتبة، أو صدرت المكاتبة (٦)، أو يقبل الأرض (٧)، أو يخدم

(١) أبوشامة: الروضتين: ج ١: ق ٢: ص ٤٨٩. والآية رقم (١٧٤) من سورة آل عمران.

(٢) ابن شيث: معالم الكتابة: ص ٤٨، وانظر مثلاً على ذلك الروضتين: ج ٢: ص ٩٦-٩٧، والقلقشندي:

صبح الأعشى: ج ٦: ص ٥١٥-٥١٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٣٢٠.

(٤) المصدر السابق: ج ٦: ص ٥١٠.

(٥) المصدر السابق: ج ٦: ص ٥١٤.

(٦) المصدر السابق: ج ٦: ص ٣٢٨، ج ٧: ص ٢٣.

(٧) أبوشامة: الروضتين: ج ٢: ص ١٦٦.

الجناب العالي، أو يخدم المجلس العالي^(١)، أو هذه المكاتبة^(٢)، أو كتابنا^(٣)، أو كتب الخادم هذه الخدمة^(٤).

أما في مخاطبة أهل الملل المخالفة للإسلام، فلا يجوز أن يخاطبوا بالظفر وعلو الكلمة، والدعاء بالفوز بالآخرة، « ويجوز أن يخاطبوا بالملوك والعبد، ومملوكه وعبده، وصفي وده، والمعتد بشكر تفضله، وقد كره أكثر الكتاب أن يخاطبوا بالأخ، وأجازوا بالولد »^(٥).

ويعد حسن التخلص من المقدمة، والانتقال إلى موضوع الرسالة الرئيس ضرورة من ضرورات الكتابة^(٦)، ولهذا اعتمد الكتاب في ذلك على عدد كبير من الكلمات، وقد خصص ابن الأثير فصلاً كاملاً في كتابه «الفتاح المنشا لحديقة الإنشا» لهذه الكلمات والعبارات التي تلي الأدعية، وتنقل الكاتب إلى الغرض الرئيس، ومنها: « ينهي، ويوضح، ويستوضح، ويشعر، ويحيط، ويعلم، ويستعلم، ويبين، ويسأل، وسؤاله، ويشفع، ويتوقع، ويرجو، ويأمل، ويختار، ويقصد، ويتوخى..... »^(٧).

ثم ينتقل الكاتب إلى العرض، وقد يتحدث فيه عن موضوع واحد كما هو في منشورات إسقاط المكوس^(٨)، ورسائل الاستنجاد^(٩) والبشائر والتهاني بالفتوح^(١٠)،

(١) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٣٢٩.

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ١٣٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٧: ص ٢٩.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج ١: ق ٢: ص ٤٩٦.

(٥) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشا: ص ٢٠.

(٦) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ١: ص ١٢٢.

(٧) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشا: ص ٤٠ - ٤٢، وانظر أيضاً رسائل ابن الأثير: ص ٧٠ - ٧٤ (تحقيق القيسي وناجي).

(٨) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ٩١-٩٢ (تحقيق هلال ناجي).

(٩) أبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ١٧١-١٧٣.

(١٠) ابن عبد الظاهر: الدر النظيم: ص ١٥-٣٤، والقلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٤٩٠-٥١٤، ٥١٩، وعز الدين بن شداد: الأعلام الخطيرة (لبنان والأردن وفلسطين): ص ٢٠٤-٢١٠.

أو قد يتحدث عن موضوعات متعددة كما هو في تقاليد الولاية^(١)، وأصحاب الحسبة، والخطابة، ونقابة الأشراف وغيرها^(٢).

وفيها يتناول الكاتب الموضوعات المتعددة في الرسالة، الواحد تلو الآخر، وتعد وحدة الموضوع في الرسالة أو ترابط الموضوعات المتعددة فيها ركناً من أركان الكتابة إذ يجب « أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض ولا تكون مقتضية »^(٣).

ثم ينتقل الكتاب انتقالاً مناسباً إلى اختتام رسائلهم بخواتيم جميلة واضحة، جيدة المعاني، سهلة الألفاظ بعيدة عن الحشو والغرابة، مناسبة للموضوع الرئيس، فتكون بذلك « قفلاً لمحاسنها، كما أن أولها مفتاح لذلك »^(٤).

وقد تنوعت أساليب الكتاب في اختتام رسائلهم ومنها: الدعاء للمخاطب، مثل قول الفاضل في ختام رسالة عن صلاح الدين إلى الخليفة بمناسبة فتح بيت المقدس: « ... جمع الله لأمير المؤمنين طاعة خلقه، وأذل رقاب الباطل سيف حقه، وجعل الله ما هو قبضته في الآخرة، قبضة أمير المؤمنين في الأولى... »^(٥).

أو حمد الله على ما أولاه من النعم، ومن أمثلة ذلك قول ابن الأثير في خاتمة توقيع كتبه عن الملك الأفضل بإطلاق المكوس والمظالم بدمشق: « ... والحمد لله الذي جنبنا فعل القوم المسرفين، وجعلنا ممن أسلف خيراً فكان من المسلفين... »^(٦) أو بالأمر إن كانت الرسائل صادرة عن السلاطين أو الملوك إلى عمالهم مثل قولهم: « فاعلم بهذا واعمل به »^(٧). ثم ينهون هذه الخاتمة - غالباً - بعبارات منها: « وللرأي

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ١٥٧ - ١٦٤.

(٢) رسائل ابن الأثير: ص ١٢٤ - ١٢٧، ١٣٢ - ١٤٨ (تحقيق المقدسي).

(٣) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ١: ص ١٢٢.

(٤) ابن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام: ص ٢٥٤، وانظر ابن شيث: معالم الكتابة: ٧٨.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٥٠٤، وانظر أيضاً ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ١٦٤.

(٦) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ٩٢ وانظر أيضاً رسائل ابن الأثير: ص ٩٢ (تحقيق القيسي وناجي).

(٧) ابن شيث: معالم الكتابة: ص ٥٠.

العالي فضل السمو والفكرة، إن شاء الله»^(١) أو «للآراء العالية مزيد من العلو إن شاء الله تعالى»^(٢)، أو «الرأي أعلى، إن شاء الله تعالى»^(٣)، «والسلام»^(٤)، أو «والسلام، إن شاء الله تعالى»^(٥).

وقد تباينت الرسائل الديوانية في أطوالها حسب موضوعاتها وكتابتها، فقد اتصفت بالطول بشكل عام رسائل البشائر والتهاني بالفتوح، ورسائل الاستنجاد، وتقاليد الولاية والخطباء، ونقباء الأشراف وأصحاب الحسبة، فقد حرص كتاب رسائل البشائر والتهاني بالفتوح على وصف تفاصيل المعارك وإبراز شجاعة العدو وكثرة عدده وعدده، ومناعة حصونه، وشدة أذاه للمسلمين، ثم وصفوا شجاعة الجيش الإسلامي، وتضحيته، وحسن بلائه وإكرام الله له بالنصر^(٦).

وعمد كتاب رسائل الاستنجاد بملوك المسلمين الآخرين إلى الموازنة بين الوضع العسكري للمسلمين، والوضع العسكري للفرنج، وبيان كثرة الإمدادات القادمة إلى الفرنج من الغرب، وحاجة المسلمين إلى مثل هذا الإنجاد بالأموال والرجال والسلاح والأساطيل من إخوانهم في الدين^(٧).

وانتج كتاب التقاليد إلى المبالغة في الإطراء على المخاطب، وبيان عظم مسؤوليته تلك الوظائف المناطة بهؤلاء الموظفين، وتعداد واجباتهم ومهماتهم^(٨).

(١) ابن شيث: معالم الكتابة: ص ٤٩، ٥٠.

(٢) رسائل ابن الأثير: ص ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ١٢٠، ١٢١، ١٢٧ وغيرها (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) المصدر السابق: ص ٨٨، ١٣٤، ١٤٤ وغيرها.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج ٢، ص ١٧٣، ورسائل ابن الأثير: ص ٢٧، ٣١، ٣٤، ٣٧، ٣٩، ٤٠ وغيرها (تحقيق المقدسي).

(٥) رسائل ابن الأثير: ص ١١٨، ١٢٤ وغيرها (تحقيق القيسي وناجي).

(٦) انظر مثلاً أبو شامة: الروضتين: ج ٢، ص ٩٦-١٠١، ورسائل ابن الأثير: ص ٦٦-٦٩. (تحقيق القيسي وناجي).

(٧) ورسائل ابن الأثير: ص ١٢٤-١٢٧، ١٣٢-١٤٨ (تحقيق المقدسي).

(٨) أبو شامة: الروضتين: ج ٢، ص ١٧١-١٧٣، ورسائل ابن الأثير: ص ٧٣-٧٥ (تحقيق القيسي وناجي).

(٨) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢، ص ١٥٧-١٦٤، ورسائل ابن الأثير: ص ١٢٤-١٢٧، ١٣٢-١٤٨ (تحقيق المقدسي).

وجاءت منشورات إلغاء المكوس^(١)، ورسائل التهديد والوعيد متوسطة لأن موضوعاتها لا تحتمل الإطالة^(٢)، ونادراً ما جاءت الرسائل الديوانية قصيرة، ومن ذلك رسالة صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل في مصر بخصوص ضرورة قتل أسرى الفرنج الذين حاولوا الاعتداء على المقدسات الإسلامية في الحجاز، لأن موقفه من هذا الأمر كان قاطعاً وغير قابل للنقاش والحجاج^(٣).

الأسلوب :

اهتم الكتاب في هذا العصر بالألفاظ اهتماماً فائقاً، فبرعوا في انتقائها لتناسب مع معاني الرسالة وموضوعها من ناحية لأن على الكاتب الذي يقدم معنى بديعاً أن يلتبس « له لفظاً يناسبه، فإنه جدير بالمعنى الشريف أن يكون لفظه شريفاً^(٤)»، ولأن اللفظ - كما يقول ابن الأثير - « كالصورة، والمعنى كالروح، فإن اتفقا وقع الكمال، وإن اختلفا وقع النقص^(٥)»، ولتناسب تلك الألفاظ مع مستوى المخاطب من ناحية أخرى. واختاروا - كما رأينا - الألفاظ الفصيحة البعيدة عن العامية والابتدال والمألوفة بالنسبة لهم، البعيدة عن الوحشية والجهامة اللتين يجهما السمع وينبو عنهما، والجزلة القوية التي تتناسب مع الموضوعات الجادة في الرسائل الديوانية، ولم يستخدموا الألفاظ الغريبة إلا قليلاً للوصول - غالباً - إلى السجع أو الجناس أو غيرهما من ألوان البديع مثل قول الفاضل في رسالة له عن صلاح الدين إلى الديوان العزيز مبشراً بفتح القدس: « لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة^(٦)، ولا فناء الألفية لهم نصره^(٧)» وقول العماد الكاتب في رسالة له عن صلاح الدين إلى

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ٩١-٩٢.

(٢) المقرئزي: السلوك: ج ١ ك ٢: ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٣) أبوشامة: الروضتين: ج ٢: ص ٣٧.

(٤) ضياء الدين بن الأثير: الجامع الكبير: ص ٢١.

(٥) ابن الأثير: كفاية الطالب: ص ٤٥.

(٦) العصرة: بمعنى الملجأ والمنجاة (اللسان: مادة: عصر).

(٧) ابن عبد الظاهر: الدرر العظيم: ص ٢٢.

الديوان العزيز: «فكم قرية كأنها هجرة الموت وبها التاريخ، وكم طعنة تخر لها هضاب الحديد ولها شماريخ»^(١).

واستخدم الكتاب في رسائل الجهاد بخاصة الألفاظ والعبارات المتعلقة بالعبادة النصرانية والألقاب الفرنجية، ومن أمثلة ذلك ما ورد في رسائل الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير والناصر داود مثل: الصليبان، والتثليث، والكنائس، والبيع، والصوامع، والناقوس والمذابح، والدير، وصليب الصليبوت، وعبدة الصليب، وأهل الأحد، والبابا والقسيس والبطرك والمركيس والقومص، والابرنس والكنند والداوية والاسبتارية^(٢)، كما استخدموا بعض هذه التعبيرات وما يقابلها من العبارات الإسلامية لأن الصراع كان محتدماً - آنذاك - بين العقيدتين مثل قول الفاضل: «.. ولما حطت لدين الكفر تيجان، وحطمت لذويه صلبان، وأخرس الناقوس الأذان، ونسخ الإنجيل القرآن...»^(٣).

وقول العماد الكاتب: «... الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين، وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف...»^(٤). وقول ابن الأثير: «... وزادهم (الفرنج) غيظاً إلى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة، وقد صار الناقوس أذناً، وكلمة الكفر إيماناً»^(٥) واستخدموا بعض الألفاظ الغزلية مثل قول الفاضل: «.. وكان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا، وافتضوا من البحر بكرا»^(٦) وقول العماد

(١) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٥١٧، والشماريخ: مفرداتها شمراخ: وهو رأس الجبل (اللسان: مادة: شمراخ).

(٢) انظر مثلاً: ابن عبد الظاهر: الدر النظيم: ص ١٥-٣٤، وأبوشامة: الروضتين: ج ٢: ص ٩٣-١٠١، والقلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٥١٥-٥١٩، ورسائل ابن الأثير: ص ١٤٩-١٥٧ (تحقيق المقدسي)، وعز الدين ابن شداد: الأعلام الخطيرة، تاريخ مدينة دمشق: ص ٢١١-٢٢٠، ٢٢٦-٢٣٣.

(٣) انظر مثلاً: أبوشامة: الروضتين: ج ٢: ص ٩١-٩٧.

(٤) المصدر السابق: ج ٢: ص ٩٦-٩٧.

(٥) رسائل ابن الأثير: ص ١٥٤ (تحقيق المقدسي).

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ١٢٩.

الكاتب: «... وجلية الصخرة جلوة العروس»^(١) وقول ابن الأثير: «... أباكار المناقب كأبكار الكواعب، تزهى بجمالها، وتنأى بوصالها، ولا تترف إلا لمن يقوم بأمرها، ويسمح بإغلاء مهرها...»^(٢).

وبعض مصطلحات القرآن الكريم والحديث الشريف مثل قول ابن الأثير: «ولدولتنا حديث حسن، تتناقل الرواة تواريخ أخباره، وتستلذ الأفواه منافثة أسماره، ويتمثل أعشاراً في سور الزمان، فلا يحو تقادم العهد صور أعشاره...»^(٣) وقوله: «... كيف يلتحق من لا إنافة في حسبه الحسب المعنعن إلى هاشم بن عبد مناف»^(٤).

والمصطلحات اللغوية مثل قول ابن الأثير في تقليد كتبه عن الملك الأفضل لأحد نقباء الأشراف: «... وليقرأ تقليدك هذا في حفل يشتمل على أشنات الناس ما بين تعريف وتنكير، وتقديم وتأخير، وجمع صحة وتكسير»^(٥).

وألفاظ المتكلمين، والفرق الدينية، مثل قول الفاضل: «... وليفوز بجوهر الآخرة، لا بالعرض الأدنى من الدنيا»^(٦)، وقوله «وأطماع الفرخ فيما بعد ذلك غير مرجئة ولا معتزلة»^(٧) ومصطلحات الرياضيات مثل قول ابن الأثير: «وغير خاف أن عبيد الدولة لها كالعمد من طرافها، ومركز الدائرة من أطرافها»^(٨)، ونظراً لعدم مبالغة الكتاب وإسرافهم في استخدام هذه المصطلحات فقد جاءت في معظمها طريفة وغير مستقبحة.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ٢٤١.

(٢) رسائل ابن الأثير: ص ٦٥ (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) المصدر السابق: ص ٦٥ (تحقيق القيسي وناجي).

(٤) المصدر السابق: ص ١٣٨-١٣٩ (تحقيق المقدسي).

(٥) المصدر السابق: ص ١٣٩ (تحقيق المقدسي).

(٦) ابن عبد الظاهر: الدر النظيم: ص ١٩.

(٧) المصدر السابق: ص ٣٣.

(٨) رسائل ابن الأثير: ص ١٢٦-١٢٧، (تحقيق القيسي وناجي).

وكانت الحروب - آنذاك - منهلاً غزيراً للكتاب فاستقوا منها كثيراً من الألفاظ المتعلقة بالقتال والحروب والجيوش والأسلحة والقلاع والحصون - كما رأينا - في رسائل الجهاد.

وقد صاغ الكتاب ألفاظهم في عبارات فصيحة واضحة قوية بعيدة عن الركافة والغموض والتعقيد الذي يستهلك المعاني ويشين الألفاظ^(١)، كما اهتموا بتنقيح الألفاظ والعبارات والتأنق في تجويدها للدلالة على البراعة والتقدم في الصناعة^(٢) وبالغوا في الاهتمام بالصنعة البديعية وكانت للقاضي الفاضل اليد الطولى في ذلك حتى عدَّ شيخ صناعة الكتابة في عصره ونسبت إليه هذه الطريقة، فقليل: «الطريقة الفاضلية»^(٣) فالنزم الكتاب بالسجع التزاماً تاماً في جميع رسائلهم، حتى الطويلة منها، وجاءت معظم أسجاعهم قصيرة أو متوسطة إذ ابتعدوا - غالباً - عن الأسجاع الطويلة المستكرهة، كما أكثروا من استخدام الازدواج، وحسن التقسيم، لإقامة التوازن بين الجمل لتنساب منها إيقاعات موسيقية مناسبة ومؤثرة، ومن ذلك قول الفاضل في وصف تتابع الإمدادات الفرنجية: «... وأنهض أبطال الباطل من فارس وراجل، ورامح ونابل، وحاف وناعل، ومواقف ومقاتل...»^(٤)، وقول العماد الكاتب: «... فالحمد لله الذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه، مبيضاً نصره، مخضراً نصله، متسعاً فضله، مجتمعاً شمله...»^(٥).

والطباق مثل قول الفاضل: «... فأجابوهم رجالاً وفرساناً، وشيباً وشباناً، وزرافات ووحدانا، وبراً وبحراً، ومركباً وظهراً...»^(٦).

(١) ضياء الدين بن الأثير: الجامع الكبير: ص ٢١.

(٢) المصدر السابق: ص ٢١-٢٣.

(٣) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر: ص ٣٧٠، وكمال اليازجي: تطور الأساليب الشعرية: ص ٢٩٢.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٥٢٧، وابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ٤٩٧.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ٢٠٣.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ٥٠٧، وأبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ١٧٢.

والمقابلة مثل قول ابن الأثير: «... ولما فصلت الحرب حاز المسلمون من المغام أوقاراً، ومحواً من الصحائف أوزاراً، فعدوا ثقلاً من الأسلاب، خفافاً مما حُطَّ في الكتاب...» (١).

والجناس مثل قول العماد: «... وما برحوا على مصابرة ومكابرة، ومقارعة ومعاقرة، ومكافحة وملافحة، ومواقفة ومواقحة، ومطاحنة ومناطحة...» (٢). وغير ذلك.

ومال الكتاب في رسائل الاستنجد والتهاني بالفتوح، وتقاليد الوظائف الكبرى إلى الإطناب عن طريق المبالغة في إسباغ الألقاب والصفات الرفيعة على المخاطب في مقدمات الرسائل مثل قول الفاضل في مقدمة رسالته عن صلاح الدين إلى ملك المغرب: «وهذه التحية الطيبة الكريمة... وقادة على دار الملك، ومدار النسك، وجل الجلالة، وأصل الأصالة، ورأس الرياسة، ونفس النفاسة، وحكم الحكم، وعلم العلم، وقائم الدين وقيمه، ومقدم الإسلام ومقدمة، ومقتضي دين الدين، ومثبت المتقين على اليقين، ومعلي الموحدين على الملحدين...» (٣).

والإطالة في الدعاء له مثل قول الفاضل في الرسالة نفسها «... أدام الله له النصر، وجهزه تيسير العسرة، ورد له الكرة، ويسط له باع القدرة، وأوثق به حبل الألفة، ومهد له درجات الغرفة، وعرفه في كل ما يعتزمه صنعاً جزياً جميلاً، ولطفاً حفيماً جليلاً، ويسر عليه في سبيله كل ما هو ﴿أشد وطأً وأقوم قيلاً...﴾» (٤).

أو للتأكيد على بعض المعاني لبيان أهميتها عن طريق العطف والترادف ومن

(١) رسائل ابن الأثير: ص ٦٩ (تحقيق القيسي وناجي).

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص ٥١٧.

(٣) أبوشامة: الروضتين: ج ٢: ص ١٧١، وابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ٥٠٥-٥٠٦.

(٤) أبوشامة: الروضتين: ج ٢: ص ١٧١-١٧٢، وابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ٥٠٦، والآية رقم (٦)

من سورة الزمّل.

ذلك قول ابن الأثير في تقليد عن الملك الأفضل لأحد الولاة: «... وملاك ذلك كله أن تسوي في الحكم بين قريبك وبعيدك، وبغضك وحبيبك، حتى لا يمتاز ذوو الفاقة عن ذوي اليسار، ولا الأجانب عن ذوي الشركة في لحمة النجار، وهذا مقام زلت عنه رواسخ الأقدام، ولا يملك المرء فيه قلبه، فإن ملك القلوب غير ملك الأجسام...»^(١).

أو لتعظيم الأمر وتفخيمه عن طريق الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال مثل قول الفاضل في رسالة إلى صلاح الدين: «... وأنه - كما قيل - أصبحت مولاي ومولى كل مسلم، وأنه قد أسبغ عليه نعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين ملك الدنيا، وملك الآخرة...»^(٢).

أو للرغبة في حشد أكبر قدر ممكن من ألوان البديع مثل وصف العماد الكاتب لقتلى الفرنج في معركة حطين: «... وشاهدت ما فعل أهل الإقبال بأهل الإديبار... ورأيت الرؤوس طائرة، والنفوس باثرة، والعيون غائرة،... وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة، بالعراء عراة، ممزقة المآزق، مفصلة المفاصل، مفرقة المفارق، مفلقة المفارق...»^(٣).

ومال الكتاب في بعض الرسائل إلى الإيجاز عن طريق استعمال جوامع الكلم من الآيات والأمثال والعبارات الموجزة كما في رسالة البهاء زهير التي ردَّ بها عن الملك الصالح نجم الدين أيوب على تهديد ملك فرنسا لويس التاسع^(٤)، وفي رسالة الفاضل عن صلاح الدين إلى أخيه العادل حول قتل أسرى الفرنج الذين حاولوا الاعتداء على المقدسات الإسلامية بالحجاز مثل قوله: «... وليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة، ولا للشرع في بقائهم فسحة، ولا في استبقاء أحد منهم

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ١٥٩-١٦٠.

(٢) أبوشامة: الروضتين: ج ٢: ص ٨٢-٨٣.

(٣) المصدر السابق: ج ٢: ص ٧٨.

(٤) المقرئ: السلوك: ج ١: ق ٢: ص ٣٥٦-٣٥٧.

مصلحة... ولا حكم الله في أحدهم مشكل أو مجهول»^(١).

واستخدم الكتاب في رسائلهم الأساليب الخبرية غالباً، ولكنهم استخدموا - أحياناً - الأساليب الإنشائية التي تناسب مخاطبيهم وأجواء رسائلهم وموضوعاتها فأكثرُوا من الدعاء للمخاطب - كما رأينا سابقاً - والإغراء بالإنجاد مثل قول الفاضل في رسالة عن صلاح الدين إلى أخيه ملك اليمن: «فالبدار إلى الجنة البدار، والمسارة إلى الجنة، فإنها لا تنال إلا بإيقاد نار الحرب على أهل النار»^(٢).

وقول الكامل في رسالة منه إلى إخوته بالشام مستنجداً بهم «الوحا الوحا، العجل العجل...»^(٣).

والنداء والأمر للاستغاثة والاستنجاد في قول الفاضل في رسالة عن صلاح الدين إلى الخليفة: «... فيا عصابة محمد - عليه السلام - أخلفه في أمته بما تظمنن به مضاجعه، ووفقه الحق فينا فإننا والمسلمون عندك ودائعه...»^(٤).

ومثل الاستفهام للاستشارة والتحريض على الجهاد في قول العماد الكاتب في رسالة بعد سقوط عكا في أيدي الفرنج سنة ٥٨٧هـ: «... فأين ذوو الأنفة والحمية، والهمم العلية، والنفوس الأبية!؟...»^(٥) وغير ذلك.

واتخذ الكتاب من القرآن الكريم منبعاً لا يغور، وكنزاً يرجع إليه، وذخراً يعول عليه في كلامهم^(٦)، فقد كان ابن الأثير يبحث الكتاب على ألا تخلو الرسالة «من معنى من معاني القرآن الكريم، والأخبار النبوية»^(٧)، ويعد ذلك

(١) أبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ٣٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٧: ص ٢٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية: ج ٣: ص ٨١.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ١٥٧.

(٥) المصدر السابق: ج ٢: ص ١٩٠.

(٦) ضياء الدين بن الأثير: الجامع الكبير: ص ١٩، ٨٩.

(٧) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ١: ص ١٢٤ (تحقيق المقدسي).

ركناً من أركان الكتابة^(١)، فإذا أحب الكاتب - كما يقول أيضاً - «الترقي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة، فإنه يحتاج إلى أشياء كثيرة، إلا أن رأسها وعمودها وذروة سنامها ثلاثة أشياء هي: حفظ القرآن الكريم، والإكثار من حفظ الأخبار النبوية، والأشعار»^(٢).

وقد أكثر الكتاب من اقتباس الآيات الكريمة بنصوصها في مطالع الرسائل تارة، ومن ذلك استهلال تورانشاه رسالته إلى نائبه بالشام مباشرةً بالنصر على الفرنج في معركة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ بمجموعة من الآيات المعبرة عن الابتهاج بهذا النصر قائلاً: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾^(٣) ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾^(٤)، ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾^(٥) ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾^(٦)، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾^(٧).

واستشهدوا بها تارة أخرى ضمن رسائلهم، فجاءت معبرة عن معانيهم أدق تعبير، في أبلغ عبارة، وأكثرها تأثيراً وإيحاء، ومن ذلك قول البهاء زهير في الرسالة التي رد بها عن الملك الصالح نجم الدين أيوب على رسالة لويس التاسع: «... فإذا جاء كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾^(٨)، وكن على آخر سورة (ص): ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾^(٩)، ونعود إلى قوله - تعالى - وهو أصدق القائلين: ﴿وكم من فئة قليلة غلبت فئة

(١) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ١: ص ١٢٤. (تحقيق المقدسي).

(٢) المصدر السابق: ق ١: ص ١٢٨.

(٣) سورة فاطر: الآية رقم (٣٤).

(٤) سورة آل عمران: الآية رقم (١٢٦).

(٥) سورة الروم: الآية رقم (٤).

(٦) سورة الضحى: الآية رقم (١١).

(٧) المقرئزي: السلوك: ج ١: ق ٢: ص ٣٥٦ - ٣٥٧، سورة إبراهيم: الآية رقم (٣٤)، وانظر ديوان ابن

الأثير: ج ٢: ص ٦٦، ٧٤، ٩٢، ١٤٣ وغيرها

(٨) سورة النحل: الآية رقم (١).

(٩) سورة (ص): الآية رقم (٨٨).

كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين ﴿١﴾.

ونشروا الآيات في عرض رسائلهم، تارة ثالثة، فبدت وكأنها أجزاء من إنشاءاتهم، وقد حثُّ النقاد على ذلك، حتى أن ضياء الدين بن الأثير ألف كتاباً قصره على حل الشعر والآيات القرآنية، والأخبار النبوية سماه «الوشى المرقوم في حل المنظوم».

ومن أمثلة نثر الآيات القرآنية قول الفاضل في وصفه لنعمة استرداد بيت المقدس: «إنها بحر للأقلام فيه سبع طويل»^(٢)، وهذا نثر للآية الكريمة: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾^(٣).

وقول العماد الكاتب في وصف ما حل بالفرنج عند مهاجمة صلاح الدين لبيت المقدس: «... وتلك سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً سخرها الله على الكفار»^(٤). فهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ، وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾^(٥).

وقول ابن الأثير في رسالته بمناسبة فتح بيت المقدس: «وقال الأقصى سبحان الذي أسرى إليَّ بجنده، كما أسرى بعده...»^(٦) فهو مأخوذ من قوله جل وعلا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى...﴾^(٧).

وقول الملك الناصر داود في وصف برج قلعة داود ببيت المقدس بأنه «ينقلب البصر عن نظره خاسئاً وهو حسير»^(٨)، فهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ

(١) المقرئ: السلوك: ج ١: ق ٢: ص ٣٥٦ - ٣٥٧، سورة البقرة: الآية رقم (٢٤٩).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٤٩١.

(٣) سورة المزمل: الآية رقم (٧).

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٥١٧.

(٥) سورة الحاقة: الآية رقم (٧).

(٦) رسائل ابن الأثير: ص ١٥٥ (تحقيق المقدسي).

(٧) سورة الإسراء: الآية رقم (١).

(٨) عز الدين بن شداد: الأعلاق الخطيرة: لبنان والأردن وفلسطين: ص ٢٢٧.

البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير»^(١).

واهتم الكتاب - أيضاً - بالأخبار النبوية، فحفظوا كثيراً منها، وجمع ابن الأثير كتاباً «يشتمل على ثلاثة آلاف خبر من الأخبار النبوية كلها يحتاج إليها في أسباب الكتابة»^(٢)، وقد أفاد الكتاب من معاني الحديث الشريف وألفاظه في كثير من رسائلهم، فاستقوا منه ما يتصل بعقيدتهم وفقههم ومفاهيمهم، وما يمس وجدانهم، وأدخلوه تارة بنصوصه في كتاباتهم بطريقة محكمة، تدل على الدقة والقدرة على التصرف في القول، ومن ذلك قول الفاضل في رسالة له إلى الخليفة يصف فيها حال المسلمين المحاصرين بعكا: «.. وكل من يعرفهم من أهل المعرفة... يناشد الله المناشدة النبوية، في الصيحة البدرية، «اللهم إن تهلك هذه العصابة»^(٣) ويخلص الدعاء، ويرجو على يد أمير المؤمنين الإجابة»^(٤).

وقول ابن الأثير في تقليد سلطاني عن الملك الأفضل لأحد الولاة: «والسعيد من إذا جاءته (يعني الإمرة) اتخذ التقوى عليها ظهيراً، وقال بالقول النبوي: «أفلحت يا قديم إن لم تكن أميراً»^(٥).

ونشروا هذه الأحاديث تارة أخرى في رسائلهم مثل قول الفاضل في رسالة له: «.. فالإسلام ببركاته البادية، وفتكاته الماضية قد عاد مستوطناً بعد أن كان غريباً»^(٦). فهو متأثر بقوله - عليه الصلاة والسلام - : «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء»^(٧).

(١) سورة الملك: الآية رقم (٤).

(٢) ضياء الدين بن الأثير: الوشي المرقوم: ص ٣٦، ٥٠.

(٣) مأخوذ من قوله - عليه الصلاة والسلام - في معركة بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد...» (ابن هشام: السيرة النبوية: ج ١: ص ٤٥٩).

(٤) الفلقشندي: صبح الأعشى: ج ٧: ص ١٣٧.

(٥) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ١٥٨.

(٦) أبو شامة: الروضتين: ج ١: ق ٢: ص ٥٦٣.

(٧) صحيح مسلم: ج ٢: ص ١٧٦.

وقول ابن الأثير في توقيع كتبه عن صاحب الموصل لأولاد بعض أصحابه وقد توفي والدهم فجعل لهم ما كان له من الإقطاع: «... ولما مضى خلفناه في عقبه براً وإحساناً، وجعلناهم في التوكل علينا كالطير تغدو خماصاً وتروح بطانا»^(١). فهو مأخوذ من قوله (ﷺ) «لو تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً، وتروح بطانا»^(٢).

وقد أكب الكتاب على حفظ الشعر، وكان باعثهم على ذلك - كما يقول - ابن الأثير: «كثرة الشعر، واستغراقه للمعاني، ولأن الأخذ منه أستر وأخفى»^(٣)، ثم يحثهم على ذلك قائلاً: «من أحب أن يكون كاتباً، أو كان عنده طبع مجيب، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد، ولا يقنع بالقليل من ذلك، ثم يأخذ في نشر الشعر من محفوظاته...»^(٤) وقد ختم ابن الأثير - أيضاً - كتاب «المفتاح المنشأ لحديقة الإنشا» بأبيات شعرية لكي يتمثل بها الكتاب في أثناء كتابتهم^(٥).

وقد أكثر الكتاب من الاستشهاد بالشعر في رسائلهم. فقد ضمن الفاضل رسالة بعث بها عن صلاح الدين إلى أخيه ملك اليمن مستنجداً به بيت جرير:

إن الكريمة ينصر الكرم ابنها وابن اللئيمة للثام نصور^(٦)

وضمن ابن الأثير في رسالة بعث بها إلى الملك الأشرف مهنئاً له بالنصر على جلال الدين شاه خوارزم قول أبي تمام:

«لو لم يقد جحفاً يوم الوغى لغداً من نفسه وحدها في جحفل لجب»^(٧)

(١) رسائل ابن الأثير: ص ١٢٨ (تحقيق المقدسي).

(٢) محيي الدين النووي: رياض الصالحين: ص ٥٠.

(٣) ضياء الدين بن الأثير: الوشي المرقوم: ص ٥٢.

(٤) ضياء الدين بن الأثير: المنل السائر: ق ١: ص ١٣٦.

(٥) ضياء الدين بن الأثير: المفتاح المنشأ: ص ٢١-٥٥.

(٦) الفلفلسندي: صبح الأعشى: ج ٧. ص ٢٥، والبيت في ديوان جرير: ص ٢٣٣.

(٧) رسائل ابن الأثير: ص ٤٦، (تحقيق المقدسي)، والبيت في ديوان أبي تمام: ج ١: ص ٥٩.

كما نشروا الشعر في بعض رسائلهم، ومن أمثلة ذلك قول ابن الأثير في رسالة له: «... والشهب الطالعة على ذوات السروج أصدق نبأ من الشهب الطالعة ذوات البروج»^(١) إشارة إلى قول أبي تمام:

«والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب»^(٢)

كما ضمنوا بعض رسائلهم بعض الأمثال السائرة والحكم، ومن أمثلة ذلك قول الفاضل: «... والبلاء ينادي طبرية بلسان مصابها: إياك أعني، واسمعي يا جارة»^(٣).

وقول العماد الكاتب في رسالة له يصف فيها حصار الكرك «... والنصر أشهر من نار على علم، والحرب أقوم من ساق على قدم»^(٤).

وقول ابن الأثير في رسالة له: «... فلما رآه (أي لما رأى صلاح الدين بيت المقدس) وقال هذا أمنية لمن يرى، وعلم حينئذ أن كل الصيد في جوف الفرا»^(٥).

وقوله في تقليد لمنصب نقيب الأشراف العلويين: «... والأدعياء فيها، وإن كبرت كلمة تخرج من أفواههم، فإنهم يوثرون جلاباب الشرف ولبسه، ويسر كل منهم باغتراس ما لم يكن أمر غرسه، ومن الأمثال المستفيضة: على مثل ليلى يقتل المرء نفسه...»^(٦) وقول البهاء زهير: «... إن الباغي له مصرع، وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يقلبك»^(٧).

(١) رسائل ابن الأثير: ص ١٥٤ (تحقيق المقدسي).

(٢) ديوان أبي تمام: بشرح الخطيب التبريزي: ج ١: ص ٤١.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ٨٥.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ٥٦، وابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ١٦٠.

(٥) رسائل ابن الأثير: ص ١٥٠ (تحقيق المقدسي).

(٦) المصدر السابق: ص ١٣٥.

(٧) المقرئ: السلوك: ج ١: ق ٢: ص ٣٥٧.

كما استشهدوا ببعض الأقوال الماثورة عن السابقين^(١)، وبعض الإشارات التاريخية المشهورة^(٢).

الصور الأدبية:

حفلت الرسائل الديوانية بالصور والأخيلة، وقد جاءت في معظمها صوراً بيانية مثل التشبيهات والاستعارات والكنائيات، وقد تنوعت مصادر هذه الصور فبعضها جاء مستمداً من الثقافة الدينية، كالقرآن الكريم، والأخبار النبوية والمفاهيم الإسلامية، والتاريخ الإسلامي، ومن أمثلة ذلك قول الفاضل في رسالة عن صلاح الدين كتبها إلى الديوان العزيز بمناسبة إعادة مصر للخلافة العباسية: «... والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها إلا صماً وعمياناً»^(٣) وقوله يصف تتابع النجدات من أوروبا إلى فرنج بلاد الشام: «... وقد اشتهر خروج ملوك الكفار في الجمع الجم، والعدد الدهم، كأنهم إلى نصب يوفضون، وعلى نار يعرضون...»^(٤).

وقول العماد الكاتب في وصف حال الكفار في معركة حطين في رسالة إلى الديوان العزيز: «... وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، سخرها الله على الكفار، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية...»^(٥).

وقول ابن الأثير في تقليد أنشأه لنقيب الأشراف العلويين بالموصل: «... قال النبي (ﷺ): «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وأشار إلى إصبعيه السبابة والوسطى، فاسلك أنت هذا النهج الأهم، واهتد بعلمه الذي هو أوضح علم، واعلم أن من أشبه أباه فما ظلم»^(٦)، وقوله أيضاً: «.. وبهذا البلد أوقاف وقفها

(١) أبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ١٦٩.

(٢) انظر رسائل ابن الأثير: ص ٦٦، ٦٧، ٧٤ (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج ١: ق ١: ص ٤٩٧.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ٤٩٨.

(٥) أبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ٨٩، وابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ٢٠٣.

(٦) رسائل ابن الأثير: ص ١٣٦ (تحقيق المقدسي).

قوم ثقلوا بها موازينهم، وخافوا يوم الفقر والمسكنة فأغنوا بها فقراءهم
ومساكينهم،... فاصرف همتك إلى نماتها الذي يجعل السنبلة فيها مكيالاً،
والقيراط مثقالاً...»^(١).

وقوله في مقتل أرناط بعد معركة حطين: «.. وجعله أضحية لعيد النصر، لا
أضحية لعيد النحر، ويرجو أن يطهر بدمه كتابه، ويغسل به حسابه»^(٢).

وقوله في كتاب له في طلب الإنجاد بالمال: «... وهذه النوبة هي أخت جيش
العسرة، ونصرة الإسلام فيها فوق كل نصرة...»^(٣).

واستمدوا صورهم من بيئاتهم العامة بما فيها من عادات وتقاليد وحيوانات،
وطيور وجبال ووديان وبحار وأنهار وغيرها، ومن ذلك قول العماد الكاتب في
وصف الصخرة عند استرداد صلاح الدين لبيت المقدس: «... وقد جليت
الصخرة المقدسة جلوة العروس...»^(٤) وقول الفاضل في وصف حصن الكرك
وهو بأيدي الفرنج وقد قطع الطريق على المسلمين ما بين بلاد الشام ومصر
والحجاز: «هو شجا في الحناجر، وقذى في المهاجر، قد أخذ من الآمال بمخنتها
وقعد بإرصاد العزائم وطرقها، وصار ذئباً للدهر في ذلك الفج، وعذراً لتارك
فريضة الحج...»^(٥).

وقول الفاضل أيضاً في وصف جيش صلاح الدين: «.. كالبنيان المرصوص
انتظاماً، وكالغاب المشجر أعلاماً، وكالنهار المانع حديداً وهاجاً، وكالليل الشامل
عجاجاً عجاجاً، وكانهر المتدافع أصحاباً، وكالمشط المطرد اصطحاباً»^(٦).

(١) رسائل ابن الأثير: ص ١٣٧. (تحقيق المقدسي).

(٢) رسائل ابن الأثير: ص ٦٩. (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) المصدر السابق: ص ٧٤. (تحقيق القيسي وناجي).

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ٢٤١.

(٥) أبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ٥٥.

(٦) الفلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٥١٢.

وقول العماد الكاتب في وصف الإمدادات الغربية للإفرنج المحاصرين لعكا: «...
وجلب البحر نحوها على أثباجه، أمثال أمواجه أمواجاً...»^(١).

كما استمدوا صورهم - أيضاً - من الحروب الطاحنة التي كانت مستعرة -
آنذاك - وما فيها من قتال وأسلحة وقلاع وحصون ومنها قول الفاضل: «...
وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفه، ونام جفن سيفه، وكانت
يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه، وطالما كانت
شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون...»^(٢).

وقوله - أيضاً -: «... والمفتتح بيد الله من الشام، مدن وأمصار... وقلاع
كانت للشرك معاقل، وللإسلام معاقر، ولبنى الكفر مصانع، ولبنى الإسلام
مصارع...»^(٣).

وقوله: «... فيملاًها عليهم جوارى كالأعلام... تطلع علينا معاصر الإسلام
آمالاً، وتطلع على الكفار آجالاً...»^(٤).

ووصف العماد سفن الفرنج قائلاً: «... ووصلت كل قطعة كأنها قلعة...»^(٥)،
ووصف المنجنيق بقوله: «... وزاحفوه بكل منجنيق كنيق...»^(٦).

وقول ابن الأثير في وصف صبر المجاهدين المسلمين: «... ويعتصمون بدروع
صبر، لا دروع حديد...»^(٧).

(١) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص ٥١٦.

(٢) الدر النظيم: ص ٢١، وصبح الأعشى: ج ٦: ص ٤٩٤.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب: ج ٢: ص ٥٠٦.

(٤) المصدر السابق: ج ٢: ص ٥٠٩.

(٥) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص ٥١٦.

(٦) المصدر السابق: ص ٥١٦، والنية: أرفع موضع في الجبل، أو الطويل من الجبال (اللسان: مادة:
نيق).

(٧) رسائل ابن الأثير: ص ٦٥ (تحقيق القيسي وناجي).

وقد مال الكتاب في صورهم إلى التشخيص والتجسيم، فقدموا الأشياء الجامدة في صور مؤثرة تحمل كثيراً من صفات الإنسان وأفعاله، كما قدموا المعاني المجردة في صور حسية حيّة مؤثرة ومن أمثلة ذلك قول الفاضل في المنجنيق: «... وأسمع الصخرة الشريفة حنينة واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبله، وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض»^(١)، وقوله: «... وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة، وكانت الظامث...»^(٢) وقوله: «... وكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة شهوداً، وكان الكفر مفقوداً، وكان الإسلام مولوداً...»^(٣).

وقول العماد الكاتب: «وأجيب الصخرة عند استصراخها، وبركت البركة الناهضة إليها في مناخها، وغسلت من أوضارها، وأوزارها بعبيرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون»^(٤).

وقول ابن الأثير في رسالة عن الملك الأفضل إلى صاحب الموصل يسليه عن هزيمة حلت به: «... وإذا جد شكت سيوفه من فراق مضاجعها، وبكت الرماح تحطم أضالعها...»^(٥). وقوله: «... فإن الإمرة وإن درت أخلافها، وطاب مرتبها ومصطافها، فإنها مرة الفطام، كثيرة الآثام...»^(٦).

ولم يقف الكتاب - أحياناً - عند تقديم الصور البيانية المجزأة بل عمدوا إلى التأليف بينها وتقديمها في مشاهد حية متكاملة، مثل قول ابن الأثير في وصف معركة حطين: «... فلماً أضاء النهار ركبت خيل الكفر وخيل الإيمان، وتقابل حزب الله وحزب الشيطان، ولم تزل الحرب تشن والكر ناش، ونارها

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى: ج ٦: ص ٤٩٨.

(٢) المصدر السابق: ج ٦: ص ٤٩٤.

(٣) المصدر السابق: ج ٦: ص ٤٩٥.

(٤) أبوشامة: الروضتين: ج ٢: ص ٩٧.

(٥) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ١٠٩.

(٦) المصدر السابق: ج ٢: ص ١٥٨.

تشب والموت غاشٍ، إلى أن تصافحوا بالصفاح، بعد أن تحيوا بالرماح، فلم نر إلا لباً مطاشاً، ورأساً محاشاً، وموارد دم تردها الصوارم عطاشاً، وليل نقع جعل النهار لباساً والأرواح معاشاً، وكان إلى جانب العدو عشب قد أخذ في الخمود، وتهياً للوقود، فأرسل المسلمون فيه النار، وهي سلطان ما أعظمه، وأرسل الله عليه سلطان الريح فأججه وضرمه، فقوتلوا بحد النار وحد الحديد، وعجلت لهم جهنم قبل اليوم الذي تقول فيه: هل من مزيد؟.... وولى طاغية طرابلس مغذاً في فراره، حاسداً للطير على مطاره.... وأمّا الباقون من أئمة الكفر وطواغيته، ومردته وعفاريته، فإنهم ثبتوا ثبات المستبسل، وأبلوا بلاء المستقتل، وكانت هناك هضبة فارتقوها معصمين، واستأخروا إليها مقدمين، ثم عاودوا الكرة وبدؤوا الحرب كما كانت أول مرة....» (١).

وقد جاءت معظم صورهم - كما رأينا - بصرية، وبعضها سمعية وقليل منها ذوقية.

وهكذا فقد اقتربت في هذا العصر لغة النثر من لغة الشعر في هذه الرسائل، إذ حفلت بالألفاظ الموحية وبالصور الأدبية من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز، وبالازدواج وحسن التقسيم اللذين يفيضان على النثر إيقاعاً مناسباً، كما سدَّ السجع فيها مسد التقفية في الشعر.

وقد عبّرت كثير من الرسائل الديوانية عن عواطف المسلمين وصورت مشاعرهم في النصر، والهزيمة، والقوة والضعف، والوحدة والتنايد، وفي الحرص على مصالح المجتمع بكل فئاته من مسلمين وذميين، وأبرياء، ومدننين، وغير ذلك.

ومن أمثلة ذلك قول القاضي الفاضل في رسالة إلى صلاح الدين بمناسبة تحرير بيت المقدس تفيض حبوراً وابتهاجاً: «... كتب المملوك هذه الخدمة، والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها، والدموع لم تمسح من خدودها... وكلما فكّر

(١) رسائل ابن الأثير: ص ٦٨-٦٩ (تحقيق القيسي وناجي).

الخادم أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه: إن الله ثالث ثلاثة، يقال فيه: إنه الواحد، جددٌ لله شكراً تارةً يفيض من لسانه، وتارةً يفيض من جفنه»^(١).

وقول العماد الكاتب في رسالة بعث بها إلى صلاح الدين عندما سقطت عكا بأيدي الفرنج سنة ٥٨٧ هـ مواسياً له ومهوناً من شأن هذه الهزيمة: «... وإن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين، وإن غاض معين فما غاب المعين، وإن ارتاب المبطلون، فما فارق الحق اليقين، وإن فتح المرتج، فما فات المرتجى، وإن ادلهم الديجور، فلا بُدَّ أن يسفر عن الصبح الدجى»^(٢).

وقول ابن الأثير في تقليد عن الملك الأفضل لأحد الولاة: «وإذا رفعت إليك الظلمات، فنقب فيها عن الظاهر والباطن، ولا تقض للأول حتى تسمع من الآخر... ومتى لاحت لك شبهة فاستمسك بها في درء الحدود، وكن بالناس رؤوفاً رحيماً، لتقر بالزلفى من الرحيم الودود، وهب أن الجاني أساء في الاجترام، فما يجوز لك أنت أن تسيء في الانتقام... ومن الرعية الذين تحت يدك أهل الذمة... فعليك أن تملي عليهم ظل المعدلة، وتنزلهم حيث أنزلهم الله ورسوله من المنزلة»^(٣).

استوحى كتاب الرسائل الديوانية معظم معانيهم وصورهم - كما رأينا - من مخزونهم الثقافي، فجاءت - في أغلبها - محتذاة على مثال سابق، ومنهج مطروق^(٤)، وقد تعددت مصادر ثقافتهم فمنها: الدينية المستمدة من القرآن الكريم، والأخبار النبوية الشريفة، والمفاهيم الإسلامية، والحوادث الكبرى في التاريخ الإسلامي، ومنها: الأدبية المستقاة من التراث الشعري والنثري عند العرب، ومنها: الحربية المأخوذة من واقع ذلك العصر المليء بالحروب والمعارك ومنها المستوحاة من الثقافة العامة، والبيعتين الخاصة والعامة للكتاب، وقد أعادوا

(١) أبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ٨٣.

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص ٥١٩.

(٣) ابن الأثير: ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ١٦٠-١٦١، وانظر التقليد بكامله: «ص ١٥٧-١٦٤».

(٤) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ٢: ص ٥.

صياغة ما اطلعوا عليه من معانٍ وصورٍ في قوالبٍ جديدةٍ مصبوغةٍ بخصائصهم الذاتية ومتفقهٍ وموضوعاتٍ رسائلهم.

ولم يقف تقليد هؤلاء الكتاب لسابقيهم - كما رأينا - عند استمداد بعض معانيهم وصورهم، بل تعداه إلى معارضة رسائل كاملة لهم لمحاكاتهم فيها تارة، ولحاولة التفوق عليهم تارة أخرى فقد عارض ابن الأثير في بعض تقاليده بعض تقاليد مشاهير الكتاب السابقين^(١)، ومن أمثلة ذلك قوله في تقليد كتبه في معارضة تقليد لأبي الحسن الصائبي: «... واعلم أنك قد تقلدت أمراً تعين به نفي الخلوم، ولا ينفكُ صاحبه على عهدة الملووم، وكثيراً ما يرى حسناته يوم القيامة وهي مقتسمة بأيدي الخصوم، ولا ينجو من ذلك إلا من أخذ أهبة الحذار، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار، وعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه في الجنة، والأخرى في النار...»^(٢).

كما أعجب الكتاب كثيراً برسالة الفاضل التي أنشأها عن صلاح الدين بمناسبة فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، فعارضها العماد الكاتب برسالة من إنشائه منها: «... ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه، وطهرت من أرجاس أنجاسه بمياه العيون التي بها قذيت، وصقلت بشفاه المؤمنين، وطالما بأيدي الشرك صديت...»^(٣).

وعارض ابن الأثير رسالة القاضي الفاضل التي بعث بها صلاح الدين إلى الديوان العزيز بمناسبة وقعة تل حطين وفتح مدينة طبرية، وعارضه في رسالة أخرى بعث بها إلى الديوان العزيز عند خروج الفرخ من البحر ونزولهم على حصار عكا سنة ٥٨٥هـ وعارضه - أيضاً - في رسالة وصف فيها قتال الأسطول في البحر على ثغر عكا، كما عارضه في رسالة كتبها إلى الديوان العزيز طلباً للإيجاد بالمال^(٤)،

(١) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ١: ص ٢٨٣ - ٣٣١.

(٢) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ١: ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج ٢: ص ١٩٨.

(٤) رسائل ضياء الدين بن الأثير: ص ٦٦-٧٥ (تحقيق القيسي وناجي).

ومنها: «... وسألت في إمدادها بنجدة من عطاياه تملأ أيديها وفرأ، وأفئدتها صبراً، ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ (١)... وليس ذلك إلا لأن بلغت النفس فيها جهدها، وبذلت فيها وجدها، وقد تكفل الله بإخلاف النفقة في سبيله، وعوض المنفق بكثير الثواب عن قليله... وهذه درجة لا ينالها إلا من رغب فأقرض، لا من سمع فأعرض...» (٢).

وحاول الكتاب إلى جانب ذلك التجديد - أحياناً - في صورهم ومعانيهم فقد اعتنى ابن الأثير كثيراً بالمعاني المتدعة حتى أنه صنّف رسالة قصرها عليها (٣)، والمعنى المتدع - في نظره - هو الذي يبتدعه الأديب من غير أن يقتدي فيه بمن سبقه، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة، ويتنبه له عند الأمور الطارئة (٤)، وهو يرى أن المحدثين أكثر ابتداءً للمعاني، والطف مأخذاً، وأدق نظراً من سابقهم (٥).

ومن المعاني المتدعة عند القاضي الفاضل قوله في المنجنيق: «... فصافحت السور فإذا أسهمها في ثنايا شرفاتها سواك، وقدم النصر منها نسرأ يخلد إخلاده إلى الأرض، ويعلو علوه إلى السماء، فأخلى السور من السّيارة، والحرب من النظارة، فأمكن النّقاب أن تسفر إلى الحرب النّقاب، وأن تعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب...» (٦).

وقوله في رسالة إلى صلاح الدين: «وأما قوله: إنا نخاف من مؤاخذتنا بذنوبنا فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام، وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهذه الساعات وعفّيت، فيكفي مستغفراً لسان السيف الأحمر في

(١) سورة الأنفال: الآية (٦٠).

(٢) رسائل ابن الأثير: ص ٧٤-٧٥ (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) ضياء الدين بن الأثير: الاستدراك: ص ٦٠.

(٤) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق ٢: ص ٧-٨.

(٥) المصدر السابق: ق ٢: ص ٦٣.

(٦) ابن نباتة المصري: مطلع الفوائد ومجمع الفرائد: ص ٤٣٤.

الجهاد، ويكفي قارعاً لأبواب الجنة صوت مقارعة الأضداد»^(١).

وقوله: «.. ولا برحت ثمار النصر تجنى من شوك رماحه، وأشخاص الفتوح تتراءى في صفحات صفاحه، ويده تداوي جرحى الدهر حتى كأنها جانبية جراحه، وأهل الزمان يتغطون من عين أبيهم العاق بظل جناحه»^(٢).

وقول العماد الكاتب في فتح طبرية: «... وفاض ري النصر من بحيرتها، وقضت على جسرها الفرنج، فقضت نحها بحيرتها»^(٣).

وقد «أجهد ابن الأثير نفسه في رسائله ليصل إلى معنى مبتدع أو غريب»^(٤)، ومن أمثلة ذلك قوله: «.. إلى أن تصافحوا بالصفاح، بعد أن تحيوا بالرماح، فلم تر إلا لباً مطاشاً، وموارد دم تردها الصوارم عطاشاً وليل نقع جعل النهار لباساً والأرواح معاشاً»^(٥).

الرسائل الإخوانية:

على الرغم من ازدهار الكتابة الديوانية كثيراً في هذا العصر إلا أن الأدباء كتبوا كثيراً من الرسائل الإخوانية في موضوعات الصداقة والمودة بين الإخوان والأقرباء، والأصدقاء، والشوق والحنين إليهم، والاعتذار إليهم، ومعانبتهم، وطلب العناية منهم ببعض الأشخاص، والتهنئة، وغير ذلك.

فقد كتب القاضي الفاضل رسالة إلى أحد أصدقائه يصف فيها مدى شوقه وحنينه إليه ويتمنى لقاءه على الرغم من بعباده عنه فقال: «... وكيف لا أذوب شوقاً إليه وحنة عليه، وقد فارقت منه الطائر الميمون الذي لم أزل أقابل منه كل يوم طائر اليمين والإقبال، والوجه الجميل الكريم الذي يجمع بين الجمال والإجمال، وما

(١) ابن نباتة المصري: مطلع الفوائد ومجمع الفرائد: ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٣٨.

(٣) القلقشندي: صحح الأعشى: ج ٦: ص ٥١٨.

(٤) أحمد مطلوب: ضياء الدين بن الأثير: ص ١٨٧.

(٥) ابن نباتة المصري: مطلع الفوائد: ص ٤٦١ - ٤٦٢، وانظر أيضاً: ص ٤٥٩ - ٤٦٥.

تذكرته إلا وأشرقني بالدمع طرف مشتاق الى مرآة مرآه، وما توهمتہ إلا وطالبني بالقرب فؤاد ليس ينسأه... وعسى وطن يدنو بهم ولعلما، وأرجو أن يكون ذلك قريبا، وما ذلك على الله بعزیز»^(١).

وكتب -أيضاً- إلى ولده يطمئنه بتمائله للشفاء من مرض ألم به، فقال: «... سطرته هذه الأحرف إلى الولد العزيز - أدام الله توفيقه، ويسرّ إلى الخير طريقه - من طهر يد حرسها الله، وكان قد عرض إليّ مرض في عكا... وسببه تعب الطريق، وتواتر الحركات التي وردت على أعضاء ضعيفة، وأنا في بقية من المرض أرجو زوالها، وعلى شرف من الصحة آمل من الله أن يفسح مجالها، وأنا اعلم أنّ الأراجيف تكثر، والأقوال تزيد وتنقص، فثق بالله - تعالى - فإن شاء الله قد كشف الشدة أو يكشفها، ووعدت أطفافه بالصحة وهو لا يخلفها، والمتوقع منك ومن كافة الأصحاب الذين سخت بركتهم أن يخصوصنا بصالح أدعيتهم... وافرح إلى الصلاة وقراءة القرآن، أحسن الله الخلافة عليك وعلى أهلِكَ، وأتمّ نعمته عليك كما أتمها على أبيك من قبلك، والله الموفق، إن شاء الله تعالى»^(٢).

وكتب ابن الأثير في فصل من كتاب يتضمن معاتبة أخ لإخوته، فقال: «... جرحوا قلبي وحبهم يذهب بألم الجراحة، وطرفوا عيني وهم يزيدون في نظرها ملاحه، وإذا صدرت الإساءة عن الأحباب لم يكن وقرها وقرأ، وأصبحت وهي منسية إذا تجددت الإساءة بالذكري، وما منهم إلا من سيطر دمي بدمه، ولحمي بلحمه، ولولا أن الأسماء معارف الأشخاص لكان اسمي وارداً على اسمه، وكيف أحسن عليهم، وقد جبلني الله لهم على اللين؟! أم كيف أذود النفس عنهم، وهي مشتقة منهم، وآدم بين الماء والطين؟! ومتى أوّمل من شجرتي أغصانا كهذه الأغصان، وقد أصيبت جرثومتها بالجداد^(٣)؟! ولهذا قيل إن

(١) محيي الدين بن عبد الظاهر: الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم: ص ٩-١٠.

(٢) إنشاءات القاضي الفاضل: ص ٧٣-٧٤.

(٣) الجداد: قطع الثمار (اللسان: مادة: جد).

الإخوة يتعذر الاعتياض عنهم، ولا يتعذر الاعتياض عن الأولاد»^(١).

وكتب إلى أحد أصدقائه لاستصلاح المودة بينهما فقال: «... كنت عنده بالمنزلة التي آمن بها ما أجنبي، فصرت أخاف ما لم أجنه، وكان لا يقبل علي شهادة عينه، فأصبح الآن يقبل علي شهادة أذنه، لكن لم يجعل الله القلوب بين إصبعين من أصابعه، إلا ليذهب بها كل واد، ومن ها هنا كانت تنتقل من وداد إلى قلى ومن قلى إلى وداد، ولا شك أن لها بين الحالتين عمراً تنتهي إليه كما تنتهي أعمار الأجساد، والصبر خير ما استعمل في جفاء الإخوان، والماء إذا جرى في مكان ثم انحرف عنه فلا بد أن يعود إلى ذلك المكان»^(٢).

ومما كتبه مشيداً بأخ صديق قوله: «... يومه في الصحبة كغده، ولسانه في الطهارة كيده، لا يحفر لأخيه قلبياً، ولا يكون على عوراته رقيباً»^(٣).

وكتب شاكياً من خلق أحد أصدقائه فقال: «... ولقد صبرت على أخلاقه العائثة، وعاملته بالخليقة الرائثة، وعالجته بضروب المعالجات، فلم تنفع فيه رقى الراقية، ولا نفث النافثة، ولما أعيا علي إصلاحه، أخذت بمقالة الخضر لموسى في المرة الثالثة»^(٤).

وكتب إلى صاحب حلب - آنذاك - عناية بشخص غريب مقيم فيها، فقال: «... وكما أنه ضيف مولانا في إنعامه، فكذلك هو ضيف المملوك في ماعون أعلامه، وفرق بين المضيفين في سعة الفناء، وفضيلة الثناء، وليس ما يخفف على صفحات الكتاب، كالذي ينقل على الأيدي وعلى الرقاب، والمملوك ينطق عن المشار إليه مادحاً، ويستزيد له من الإحسان ماتحماً»^(٥).

(١) ابن الأثير: المثل السائر: ق ١: ص ١٣٨-١٣٩.

(٢) المصدر السابق: ق ١: ص ١٤٨.

(٣) ابن الأثير: الوشي المرقوم: ص ٢١٠.

(٤) ابن الأثير: المثل السائر: ق ١: ص ١٨٦، يشير إلى قوله تعالى على لسان الخضر لموسى (عليه الصلاة والسلام): ﴿هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنَكَ﴾ الآية رقم (٧٨) من سورة الكهف.

(٥) رسائل ابن الأثير: ص ٣٣٧-٣٣٨ (تحقيق المقدسي).

وتبادل الكتاب الرسائل - أيضاً - للإشادة ببلاغة بعضهم، ومن ذلك ما كتبه أسامة بن منقذ مشيداً ببيان القاضي الفاضل وبلاغته، رداً على رسالة كان قد أرسلها إليه، يطلب فيها نسخة من كتابه «العصا» ويشيد فيها بشخصه وأدبه، فقال: «وما عسى أن يقول مطريه ومادحه، والفضل نغبة من بحره الزاخر، وقطرة من سحابه الماطر، تفرد به فما له من نظير، وسبق من تقدمه في زمانه الأخير، فتق عن البلاغة أكماماً، تزينت الدنيا منها بالأعاجيب، وأتى بآيات فصاحة كادت أن تتلى في المحاريب، إذا استنطقت ازدحمت عليها العقول والأسماع، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع، فسبحان من فضله بالبلاغة على الأنام، وذلك له بديع كلام ما كانه من الكلام، تعجز عن سلوك سبيله الأفهام، وتجار في إدراك لطف معانيه الأوهام، وهو سحر لكنه حلال، ودرُّ إلا أن بحره حلو سلسال...»^(١).

كما تبادل الكتاب الرسائل في الموضوعات الإخوانية الأخرى المختلفة مثل التهاني بقدوم مولود^(٢) أو عيد^(٣) أو براء من مرض^(٤) أو نجاة من مكروه، والشفاعة لبعض المذنبين، والشكر على هدية، أو رسالة، أو كتاب، والاعتذار عن قلة المكاتبة^(٥)، وغير ذلك.

وتدور الرسائل الإخوانية - كما رأينا - حول الموضوعات الخاصة التي تهتم الأديب، وقد جاءت في معظمها قصيرة أو متوسطة الطول نسبياً، وتدور حول

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج ١: ص ٥٤١.

(٢) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، وغيرها، ورسائل ابن الأثير: ص ٩٦-٩٩ وغيرها (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ١٠٣ (تحقيق هلال ناجي)، ورسائل ابن الأثير: ص ٧٦-٧٧، ٧٩-٨٩ (تحقيق المقدسي).

(٤) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ١١٠، ورسائل ابن الأثير: ص ١١١-١١٦ (تحقيق المقدسي).

(٥) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ٨٦-٨٩، ١١١-١١٣، ١٧١، ١٧٧، ١٨٠، ١٨١، ١٢٥-١٢٤، ١٢٧.

موضوع واحد^(١)، وتتكون - غالباً - مثل الرسائل الديوانية من مقدمة وعرض وخاتمة، إذ كان الكتاب يستهلون رسائلهم الإخوانية بمقدمات جميلة ومناسبة للموضوع الرئيس، ثم يحسنون التخلص والانتقال إلى العرض ثم يختمون رسائلهم بخواتيم بليغة مؤثرة، وقد جاءت معاني تلك الرسائل - غالباً - واضحة بعيدة عن الغموض والتعقيد، ومترابطة.

وكان الكتاب ينتقون ألفاظهم بعناية ودقة لتلائم موضوع الرسالة، ومستوى المخاطب ويصوغونها في عبارات فصيحة قوية حافلة بألوان الصنعة البديعية - التي تصل إلى حد التكلف أحياناً - من سجع وازدواج وحسن تقسيم، وجناس وطباق ومقابلة، واقتباس وتضمنين، كما جاءت رسائلهم حافلة بالصور البيانية الحية والأخيلة المؤثرة المستمدة من ثقافتهم الواسعة ومن بيئاتهم ومشاهداتهم.

الرسائل الأدبية :

وازدهرت في هذا العصر - أيضاً - الرسائل الأدبية، وهي التي كتبها الأدباء حول موضوعات أخرى وصفية أو خيالية أو رمزية، مثل الطرديات والوصف، والمفاخرات، ووصف الحوادث الجارية وغيرها.

فقد أورد أسامة بن منقذ - كما رأينا - فصلاً كاملاً وصف فيه مشاهداته للصيد في مراحل حياته جميعها^(٢)، وكتب الأمير يغمر بن عيسى العكبري رسالة طويلة في وصف رحلة صيد قام بها بصحبة أصدقائه^(٣)، وقد ضمنها مشاهد مؤثرة لصيد الطباء والطيور.

وكتب الوهراني رسالة طريفة على لسان بغلته، وقدمها لأحد الأمراء، شكت

(١) انظر ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ٧٧-٩٠، ١٠٣، ١١١-١١٥، ١١٧-١١٩، ١٢٠-١٢٧،

١٢١-١٤٢، ١٥٠-١٥٣، ١٥٥-١٥٧، ١٦٥-١٧٦ وغيرها. ورسائل ابن الأثير: ص ٧٥-١٠١،

١٠٣-١٠٧، ١٤٥-١٤٧ وغيرها (تحقيق القيسي وناجي).

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ١٩١-٢٢٦.

(٣) العماد الكاتب: خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام: ج ١: ص ٣٥٤-٣٩٠.

فيها مما تعانیه من الجوع وسوء الحال، وطلبت منه أن يمدها بما يفرج عنها ويصلح حالها من العلف^(١)، وكتب رسالة أخرى موجهة للطير، طلب فيها ألا يفخر الطير القوي على الطير الضعيف المسالم، وأثنى فيها على عدد من الطيور، ثم ندد فيها بالوطواط وطلب من كل من يظفر به أن يفتك به لسوء حاله^(٢).

وكتب - أيضاً - رسالة طريفة على لسان جامع دمشق وصف فيها أحوال مساجد دمشق وما حولها - آنذاك - وملخصها أن مساجد دمشق وما حولها من الضياع عانت في زمن نور الدين محمود من الخراب والإهمال، فاجتمعت عند أميرها الجامع الأموي، ورفع جامع النيرب^(٣) إليه رقعة ضمنها سوء أحوال المساجد وشكاواها، وما تلقاه « من جور العمال وتضييع الأعمال، ونهب الوقوف، وخراب الحيطان والسقوف، قد ألفهم الظلم والظلام، وأنكرهم المؤذن والإمام، فلا تسمع لهم حسيساً، ولا ترى منهم أنيساً، إلا أذان البوم، وتسبيح الغيوم، وقد ركعت حيطانها، وسجدت سقوفها وأركانها، وانصرفت من الصلاة أربابها وسكانها، تنوح عليهم الأجراس والنواقيس، وترثي لهم البيع والنواويس^(٤) ».

يرثي له الشامت ممابه يا ويح من يرثي له الشامت^(٥)»

ثم تكلم جامع المزة^(٦)، فوصف سوء أحوال المساجد، ثم تلاه مشهد برزه، فوصف ما حل بالمشاهد من خراب ودمار، وبعد أن استمع الجامع الأموي إلى شكاياتهم، أشار عليهم أن يرفعوا شكواهم إلى قاضي القضاة ابن عسرون، وعندما اطلع عليها ابن عسرون غضب كثيراً، وكتب على ظهرها هجاء للجامع الأموي، فغضب الجامع الأموي من رده وهجائه، ورفع شكواه وشكواهم إلى

(١) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص ٩٠-٩٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٣٤-٢٣٧.

(٣) النيرب: قرب الربوة وهي الآن من ضواحي دمشق. (معجم البلدان: ج ٥: ص ٣٣٠).

(٤) النواويس: مفرداً ناووس: وهو مقبره النصارى (اللسان: مادة: نوس).

(٥) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص ٦٢.

(٦) المزة: قرية قرب دمشق، وقد أصبحت الآن جزءاً منها (ياقوت: معجم البلدان: ج ٥: ص ١٢٢).

الملك الزاهد نور الدين محمود، فلما وقف عليها اهتم بأمرها، وعزل ابن
عصرون، وأصلح أحوال المساجد^(١).

وكتب القاضي الفاضل إلى أحد أصدقائه في وصف دمشق حينما دخلها،
فقال: « .. إني وصلت إلى دمشق المحروسة، حين شرد بردها، وورد ردها، واخضل
نبتها، وحسن نعتها، وصفا مأوها، ووضفا رواؤها، وتغنت أطيارها، وتبسمت
أزهارها، وافترزهر أقحوانها، فحكى ثغور غزلانها، ومالت قضب بانها، فانثنت
تثني ولدانها... »^(٢).

وكتب ابن شكر في وصف دمشق - أيضاً -^(٣) كما كتب العماد الكاتب
رسائل في وصف القلم^(٤)، وفي وصف الأمطار، والثلوج^(٥)، وفي وصف
فصل الشتاء^(٦) وفي وصف القحط الذي حلّ بالشام^(٧) وفي وصف فصل
الخریف^(٨).

وكتب ابن الأثير رسائل أدبية كثيرة في وصف القلم^(٩)، وفي وصف
الشمعة^(١٠)، وفي وصف أجواء بعض المدن^(١١)، وفي وصف بستان ذي فواكه

(١) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص ٦١-٧١، والوهراني في رقعته عن مساجد دمشق:
ص ١٠-١١، ١٢-٢٦.

(٢) عز الدين بن شداد: الأعلام الخطيرة: (تاريخ مدينة دمشق) ص ٣١٨.

(٣) المصدر السابق: ص ٣١٣.

(٤) العماد الكاتب: البرق الشامي: ج ٥: ص ١٧٥-١٧٧.

(٥) المصدر السابق: ص ١٧٠-١٧١.

(٦) العماد الكاتب: البرق الشامي: ج ٣: ص ١٣٥.

(٧) المصدر السابق: ص ٧١.

(٨) المصدر السابق: ص ١٣٢-١٣٣.

(٩) ابن الأثير: الوشي المرقوم: ص ١٠٢، ١٧٠، ١٧٩، ٢٠١.

(١٠) رسائل ابن الأثير: ص ٩١-٩٢، ٩٤، ٩٦-٩٧ (تحقيق المقدسي).

(١١) رسائل ابن الأثير: ص ١٠١ (تحقيق القيسي وناجي).

متعددة^(١)، وفي وصف مسيرة في القفلة^(٢). وفي وصف مستنزه في زمن الربيع^(٣)، وفي وصف الشتاء والبرد^(٤) وفي وصف مصر^(٥)، وفي صيد السمك^(٦)، والصيد بالفهود والبزاة والكلاب^(٧) ومن ذلك قوله في وصف صيد الفهود: «... وجملة الأمر أنه عرض لنا سرب من الظباء مدرّب على الصيد ومصائده، عارف بمخاتله ومكائده، وقد طرق مكانه حتى لم يهنأ بمرتعته، ولا أمن نبوة مصرعه، وليس منه ما تمتع برؤية أشباهه من الفرقدين، ولا نسي الفجيجة بإلفه الذي خرّ للقم واليدين، فلما أحس بنا طار خيفة حتفه، وكاد أن يختلف ظله من خلفه، فأرسلنا عليه فهذا سلس الضريبة ميمون النقيبة، منتسبا إلى نجيب من الفهود ونجيبة... وهو يبلغ المدى الأقصى في وثباته، ويسبق الفريسة ولا يقنصها إلا عند التفاته، وقد علمت الظباء أن حبالها في حبل ذراعها، وأن نفوسها مخبوءة بين أضلاعه، فلم يكن إلا نبضة عرق أو لمعة ومض برق، حتى أدرك عقيلة من تلك العقائل، فأناخ عليها كلكله، ووقف بإزائها ينتظر مرسله، وكذلك فعل بأخرى منهن وأخرى وكلما رفع من بين يديه واحدة تابع الفرائس تتري، فكأنه يطلب ذلك السرب بنزوان الأحقاد، أو كأنه علم عدتنا فجعل ما يصيد على نسبة الأعداد...»^(٨).

وكتب أيضاً رسالة في المفاخرة بين الأزهار، فقد خرج للنزهة في يوم جميل من أيام الربيع إلى روض بديع ساحر، فأخذ يسرح طرفه في محاسنه من ورود وطيور، فتخيل النرجس وقد وثب وثبة الريم من كناسه مفتخراً بمحاسنه، فابرى

(١) رسائل ابن الأثير: ص ١٨٩-١٩٠ (تحقيق المقدسي).

(٢) رسائل ابن الأثير: ص ١٠٠-١١١ (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) ديوان رسائل ابن الأثير: ج ٢: ص ١٤٦-١٥٠.

(٤) المصدر السابق: ج ٢: ص ١٠٤-١٠٥.

(٥) رسائل ابن الأثير: ص ١١٤-١١٥، ١١٦ (تحقيق القيسي وناجي).

(٦) رسائل ابن الأثير: ص ١٩٥-١٩٦ (تحقيق المقدسي).

(٧) المصدر السابق: ص ٩٧-١٠٨.

(٨) المصدر السابق: ص ١٠١-١٠٢.

الأقحوان لمبارزته، فحط من شأنه وافتخر بمحاسنه، فتصدى الشقيق له وبين مناقصه، وتغنى بجمال مناقبه، فنهضت له زهرة بدوية وعددت مظاهر ضعفه، وافتخرت بجمال لونها وطيب عرفها، فانبرى لها البنفسج مغضباً، وخطاً من شأنها، ثم قال: « .. ولكن أنا حبيب النفوس، وتاج العروس، والعطر الموضوع في الجيوب، واللون الذي يشبه عذار المحبوب .

فأقبل الورد في جنوده، خافقة ألسنة عذباته وبنوده ، محمر الوجنات من الغضب منكراً على البنفسج ما جناه من سوء الأدب، فجال في ميدان المفاخرة وصال، وهتف بالبنفسج وقال: كيف أطعت هوى نفسك الأمارة، حتى افتخرت بحضرة الإمارة؟! ألسنت صاحب الاسم المعجم، والبرد الذي ليس بمعلم، بينما ترى ناضراً، إذ يرى الطرف عنك نافراً، وهل لك فخر إلا أن تشبه بالعذار إذا بقل، وبالكبريت إذا اشتعل، ولم تحظ من هذين الوصفين إلا بالصيت المذموم، لأن هذا إحراق النار، وهذا تسويد الخد المثلثوم . . . لكن أيامي أيام الأفراح، ومراوح الأرواح، ولا يشرف الربيع إلا بورودي، ولا تشبه خدود الحبيب إلا بخدودي، ولا تطرب النفوس إلا بمجاورتي، ولا تطيب الكؤوس إلا بمحاضرتي . . . ولم أزل من الأزهار في سؤال وجواب، وأنا منصت إنصات التعجب لمفاخرات الإعجاب . . .»^(١).

حتى تصدت لهذه الأزهار ورقاء هاتفة، فانبرت لها غمامة ماطرة، فعارضتها الشمس التي خرجت من أثوابها، وبرزت من حجابها، ثم ختمت هذه الرسالة بالمديح^(٢).

ويمكننا أن نستنتج من هذه النصوص أن الناثرين في هذا العصر قد اتبعوا في صياغتها ثلاثة مذاهب أدبية: مذهب التصنع البديعي، والمذهب الوسطي، والمذهب المرسل (أو المطلق)، وكان الكاتب نفسه - أحياناً - يكتب بأسلوب منها في موضوع معين، ويكتب بأسلوب آخر في موضوع غيره^(٣).

(١) ابن الأثير: رسالة الأزهار: ص ٩-١٠، (تحقيق هلال ناجي).

(٢) المصدر السابق: ص ٧-١٢ (تحقيق هلال ناجي).

(٣) أنظر: المذهب الأدبية وخصائصها الفنية: ص ٣٤٧-٣٥٦.

النشر التأليفي

ازدهر النشر التأليفي في هذا العصر، فألف الكتاب والعلماء كتباً في فنون مختلفة فكتب معظمهم مقدمات بليغة لكتبهم، كما ظهر في هذا العصر الأدب التاريخي، والأدب الجغرافي، وأدب المجاميع الأدبية، وغير ذلك.

وقد وضع معظم المؤلفين مقدمات نثرية لكتبهم تأنقوا فيها، وساروا على نسق الرسائل الديوانية، فأكثرها فيها من السجع والجناس والمطابقة، وألوان البديع الأخرى، ومن الصور البيانية، ومن أمثلة ذلك قول ياقوت الحموي في مقدمة كتابه «معجم البلدان»:

«... أما بعد، فهذا كتاب في أسماء البلدان، والجبال والأودية والقيعان، والقرى والمحال والأوطان، والبحار والأنهار والغدران، والأصنام والأبداد والأوثان، لم أقصد بتأليفه، وأصمد نفسي لتصنيفه، لهواً ولا لعباً، ولا رغبة حثتني إليه ولا رهباً، ولا حينياً استفزني إلى وطن، ولا طرباً حفزني إلى ذي ود وسكن، ولكن رأيت التصدي له واجباً، والانتداب له مع القدرة عليه فرضاً لازماً، وفقني عليه الكتاب العزيز الكريم، وهداني إليه النبأ العظيم...»^(١).

وألف بعض المؤرخين كتباً قدموا فيها المادة التاريخية بلغة أدبية، وضمنوها بعض ما قاله الأديباء من نظم ونثر فيما يروونه من حوادث^(٢).

وقد حرص آخرون منهم على تقديم الحقائق التاريخية بأسلوب سهل بسيط بعيد عن التأنق والتزام السجع والصنعة البديعية المتكلفة، مع استخدام الصور والأخيلة أحياناً للتعبير عن عواطفهم تجاه بعض الحوادث مما يرقى بكثير من فقراتها ونصوصها إلى مستوى أدبي عال، مثل كتاب الكامل في التاريخ

(١) ياقوت الحموي: مقدمة معجم البلدان: ج ١: ص ٧.

(٢) انظر مثلاً لذلك بحث «القيمة الأدبية في كتاب الكامل في التاريخ لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير» للدكتور عبد الكريم توفيق العبود. بحوث ندوة أبناء الأثير: ص ١٨٣-٢٠٥.

لعز الدين علي بن محمد بن الأثير، والنوادر السلطانية والحاسن اليوسفية لابن شداد .

ومن أمثلة ذلك ما كتبه عز الدين بن الأثير في وصف خروج التتار إلى ديار الإسلام، وفي وصف مشاعره وأحاسيسه تجاه هجومهم الوحشي المدمر فقال : « ... لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة ، استعظما لها، كارهاً لذكرها فأنا أقدم إليه رجلاً، وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها، وكنت نسياً، إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت ذلك لا يجدي نفعا، فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقرت الأيام والليالي عن مثلها، عمّت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله - سبحانه وتعالى - آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها، لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها...»^(١).

وما كتبه ابن شداد في وصف حال المسلمين عند وفاة صلاح الدين: « ... وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج، حتى أن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً، وغشي الناس من البكاء والعيول ما شغلهم عن الصلاة، وصلى الناس عليه أرسالاً... وكان نزوله في حفرة - قدس الله روحه، ونور ضريحه - قريباً من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر وعزى الناس فيه، وسكن قلوب الناس، وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالتهب والفساد، فما يوجد قلب إلا حزين، ولا عين إلا باكية، إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع...»^(٢).

وقدم عز الدين بن الأثير مادته التاريخية في كتابه «التاريخ الباهر في أخبار

(١) عز الدين بن الأثير: الكامل: ج١٢: ص٣٥٨.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٢٤٧.

الدولة الأتابكية بالموصل» بأسلوب أدبي توسع فيه في استعمال السجع، والصور البيانية، وتأنق في أسلوبه كما افتتحه بمقدمة مسجوعة، وختمه بخاتمة مسجوعة - أيضاً -^(١)، واستشهد بالشعر في كثير من المناسبات وضرب أحياناً بعض الأمثال، ومن أمثلة نثره في هذا الكتاب قوله في وصف مسير عماد الدين زنكي، لمهاجمة الرها في سنة ٥٣٩هـ. «فحينئذ أمر بالنداء في العسكر بالتجهيز والتشمير، والجد في المسير، وهدد لمن عن صحبته تأخر، وأعلمهم أنه لا يقبل عذر من اعتذر، وأقبل مسرعاً كالسهم الصادر عن وتره، والسيل الصائر إلى مستقره، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضاً، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضاً... فلما علم من بها من العدو إقباله، سرى الرعب في احشائهم، واختلط الخوف بدمائهم، وأسقط في أيديهم... فصبه الله عليهم عذاباً، وساقه إليهم عقاباً...»^(٢).

وحرص بعض المؤرخين على تقديم مادتهم التاريخية بأسلوب أدبي حافل بالصنعة البديعية المتكلفة والصور والأخيلة مثل كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» الذي أرخ فيه العماد الكاتب لما قام به صلاح الدين الأيوبي من جهاد ضد الإفرنج وفتوح. منذ فتحه لبيت المقدس في سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) حتى وفاته في سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) وما تلاها من تقسيم دولته بين أبنائه وأقاربه، وقد اشتمل هذا الكتاب - أيضاً - على صفات صلاح الدين وسجاياه الحميدة، وحفل بعدد من الكتب والرسائل التي أنشأها المؤلف في تلك الحوادث، ومن نماذج كتابته في هذا الكتاب قوله في وصف حال الفرنج في مدينة بيت المقدس عند وصول صلاح الدين بجيشه إليها لفتحها: «... وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من سائف ونابل، وبطل للباطل، وعاس^(٣) عاسل^(٤)

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١-٣، ٢٠٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٨.

(٣) عاس: طائف بالليل، يحرس الناس ويكشف أهل الريبة (اللسان: مادة عسس).

(٤) عاسل: مهتز أو مضطرب (اللسان: مادة عسل).

بالعاسل^(١)، قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون، ويعاجزون ويناجزون، ويرمون ويدمون، ويحمون ويحمون، ويحتدون ويحتدمون، ويضطربون ويضطرمون، ويذودون ويذبون، ويشبون ويسبون، ويصرخون ويحرضون^(٢).

ومثل كتاب «البرق الشامي» الذي جعله العماد الكاتب في بضعة مجلدات^(٣)، وقد بدأه بالحديث عن نفسه، ثم عن انتقاله من العراق إلى الشام في سنة (٥٦٢هـ/١١٦٧م)، والتحاقه بخدمة السلطان نور الدين محمود، ثم بصلاح الدين من بعده، وتحدث عن مكانته لديهما، وعن الفتوحات التي جرت في بلاد الشام -آنذاك- وأنها بحوادث سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) وقد ضمنه كثيرا من كتبه ورسائله وشعره^(٤). وعددنا من إنشاءات القاضي الفاضل^(٥)، ومن نماذج كتابته في هذا المؤلف قوله يصف نزول صلاح الدين بجيشه على حصن بيت الأحزان وفتحه في سنة ٥٧٥هـ: «... ووصلنا إلى الحصن في أيام كأنهن ليالٍ في ظلمة العثير^(٦)، وليال كأنهن أيام من سنا السنور^(٧)، وقد جاش الجيش بقساور قساوة، وضراغم ضراوة، وليوث كفاح، وكباش نطاح...»^(٨).

وتتجلى في كتابي العماد هذين - كما رأينا - السمات الأسلوبية لرسائله الديوانية فقد طغت على أسلوبه فيهما العناية الفائقة باختيار الألفاظ، والتأنق في صياغتها، والإسراف الشديد في الصنعة البديعية من سجع، وجناس، وطباق

(١) الرمح العاسل: الرمح المضطرب اللدن (اللسان: مادة: عسل).

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص ١٢٤.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء: ج ١٩: ص ١٩، ولم يحقق منه سوى الجزء الثالث الذي أرخ فيه للحوادث في سنة ٥٧٣هـ إلى سنة ٥٧٥هـ وقد قام بتحقيقه د. مصطفى الحياوي. والجزء الخامس الذي أرخ فيه للحوادث في سنتي ٥٧٨هـ و ٥٧٩هـ وحققه د. فالح صالح حسين.

(٤) العماد الكاتب: البرق الشامي: ج ٣: ص ٢٤-٢٨، ٣٣-٣٥، ٤٥-٥٠، ٦٩-٧٥ وغيرها.

(٥) المصدر السابق: ج ٣: ص ٤٢-٤٤، ٥٩، ٦٥-٦٨، ٧٥-٧٦، ٩٤-١٠٤ وغيرها.

(٦) العثير، والعثيرة: العجاج الساطع، والغبار (اللسان: مادة: عثر).

(٧) السنور: جملة السلاح، وخص بعضهم به الدروع (اللسان: مادة: ستر).

(٨) العماد الكاتب: البرق الشامي: ج ٣: ص ١٧٦.

ومقابلة، وازدواج وحسن تقسيم، والتكلف في استخدامها، والميل إلى الإطناب، والمبالغة في استخدام الصور البيانية، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف والتضمين بالمأثور من الشعر والنثر، مما جعل استخلاص الحقائق التاريخية منهما أمراً شاقاً.

وازدھر في هذا العصر أدب الرحلات، ووصف البلدان والمواضع، الذي دُون فيه الجغرافيون والرحالة ما شاهدوه من عمران ومدن ومعالم ومواضع، وما جرى لهم من حوادث في أثناء رحلاتهم وأسفارهم، ومن أشهر هؤلاء الكتاب: أسامة ابن منقذ، وابن جبیر، وياقوت الحموي، وعبد اللطيف البغدادي.

فقد وصف أسامة في كتابه «الاعتبار» مشاهداته في أثناء حياته بشيزر ودمشق ومصر وحصن كيفا «في مذكرات شائقة قل نظيرها من حيث الأمانة في النقل، والصدق في الرواية والدقة في الملاحظة»^(١).

ولم يصف أسامة في كتابه هذا البلاد التي زارها أو عمرانها، كما فعل معظم الرحالين العرب الآخرين، ولكنه وصف الحوادث التي جرت له فيها^(٢)، ووصف الحياة الإجتماعية^(٣) والإقتصادية^(٤) لبلاد الشام، ومصر - آنذاك -، والعلاقات بين الفرنج والمسلمين في بلاد الشام^(٥)، فاعتبره بعض الباحثين المحدثين في عداد الرحالين العرب، ووصفوا «الاعتبار» بأنه نسيج فريد في الأدب العربي^(٦)، وبأن كتاب «الاعتبار» «تطور للرحلة التي جاءت على شكل مذكرات، وملاحظات سجلها أسامة بكل صدق ودقة في أسلوب قصصي»^(٧). وعدوا هذه الرحلة

(١) علي محسن عيسى مال الله: أدب الرحلات عند العرب في المشرق: ص ٢١٥.

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ٤-٣٦ وغيرها.

(٣) المصدر السابق: ص ١١٥، ١٨٠، ١٩١-٢٢٦ وغيرها.

(٤) المصدر السابق: ص ١١-١٢، ١٠٥، ١١٢، ١٥١، ١٩٢-١٩٣ وغيرها.

(٥) المصدر السابق: ص ١١٣-١٤١ وغيرها.

(٦) نقولاً زيادة: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى: ص ٧٢.

(٧) علي محسن عيسى مال الله: أدب الرحلات عند العرب في المشرق: ص ٢٣١.

وثيقة تاريخية فريدة من نوعها في عصر الحروب الصليبية^(١)، وفي الحقيقة فإن فصلي «أسامة في مصر»^(٢) و«طبائع الإفرنج وأخلاقهم»^(٣) يدخلان في صميم أدب الرحلات، ومن ذلك قوله يصف مسيره في وادي موسى بعد خروجه من مصر مع الوزير عباس الصنهاجي: «.. فسرنا في أشد من الموت في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال ولا علف للخيل إلى أن وصلنا جبال بني فهيد - لعنهم الله - في وادي موسى.. وبتنا في مبيت سوء من خوفهم، فلما أضاء الصبح أخذوا عدتهم، ووقفوا على العين، وقالوا: ما ندعكم تشربون ماءنا ونهلك نحن بالعطش، وتلك العين تكفي ربعة ومضر، وكم في أرضهم مثلها! وإنما قصدهم أن ينشئوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا، فنحن فيما نحن فيه، ومنصور بن غدفل وصل، فصاح عليهم وسبهم، فتفرقوا، وقال: اركب، فركبنا ونزلنا في طريق أضيق من الطريق التي طلعت فيها وأوعر، فنزلنا إلى الوطا سالمين، وما كدنا نسلم، فجمعت للأمير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها إليه وعاد»^(٤).

وكما - رأينا - فقد قدّم أسامة مشاهداته على شكل مذكرات بأسلوب قصصي سهل بسيط مشوّق خال من الصنعة أو التكلف.

أمّا ابن جبير فقد غادر غرناطة للحج في سنة ٥٧٨هـ، فمر بسبته، وركب منها البحر إلى ميناء الإسكندرية، ومنها ركب النيل إلى القاهرة، فصعيد مصر، ثم سار إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر، وأبحر منه إلى مدينة جدة، ثم سار منها إلى مكة حيث أدى مناسك الحج، ثم أقام فيها عدة أشهر، ثم سافر إلى المدينة المنورة، وزار القبر النبوي الشريف، ثم ارتحل إلى الكوفة والحلة وبغداد وسامراء وتكريت والموصل وحلب وحمّاة وحمص، ثم وصل إلى دمشق حيث

(١) على محسن عيسى مال الله: أدب الرحلات عند العرب في المشرق: ص ٢٣١.

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ٦-٣٦.

(٣) المصدر السابق: ص ١٣٢-١٤١.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٧-٢٨.

أقام فيها بضعة أشهر، ثم سار إلى بانياس ثم إلى عكا التي كانت بيد الإفرنج - آنذاك - فركب البحر في مركب إفرنجي، إلى صقلية، فتعرض هذا المركب أمام ساحل مدينة مسينة بجزيرة صقلية إلى كارثة، فأنقذت بعض الزوارق الركاب من الغرق، فنزل ابن جبير إلى جزيرة صقلية، واطلع على معالمها، ثم تابع رحلته، فوصل إلى غرناطة سنة ٥٨١هـ.

وقد وصف ابن جبير مشاهداته في هذه الرحلة وصفا دقيقاً شاملاً حياً ممزوجاً بعواطفه ومشاعره، فلم يكتف - غالباً - بالوصف الخارجي للمدن والمواقع التي مرّ بها، بل وصف معالمها وآثارها، وتحدث عن عادات سكانها وأخلاقهم، وتقاليدهم وأصولهم ونشاطهم الاقتصادي، مثل وصفه للإسكندرية، وجدة، وبغداد، ودمشق، وعكا وغيرها^(١)، وأبدى إعجابه بما رأى، أو استهجانه منه، واتبع في تدوين رحلته «أسلوب المذكرات»^(٢) وقد جاءت أفكاره فيها واضحة متسلسلة مترابطة كما نقل الحقائق التي شاهدها بأمانة وصدق مستخدماً في معظم رحلته الأسلوب المرسل (المطلق) الخالي من الصنعة البديعية المتكلفة، وقد انطلق فيه على سجيته، ونوع فيه بين السرد والوصف، ومن أمثلة ذلك قوله يصف مدينة عيذاب: «وهي مدينة على ساحل بحر جدة، غير مسورة، أكثر بيوتها من الأخصاص، وفيها الآن بناء مستحدث من الحص، وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة، وهي صحراء لا نبات فيها، ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب، ولكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كبير ولا سيما مع الحجاج لأن لهم على كل حمل طعام يحملونه ضريبة معلومة، ولهم أيضاً من المرافق من الحجاج إكراء الجلاب منهم . . .»^(٣). ثم يصف معاملة أهلها للحجاج فيقول: « . . . ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت، وذلك أنهم يشحنون

(١) رحلة ابن جبير: ص ٧-١٧، ٤٥-٥٧، ١٩٣-٢٠٥، ٢٢٥-٢٢٨، ٢٣٤-٢٨٣.

(٢) يوسف عروج: النشر الفني في عهد الموحدين بالمغرب والأندلس: ص ٢٧٩.

(٣) رحلة ابن جبير: ص ٤٥.

بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة ثمنها في طريق واحدة، ولا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك، ويقولون: علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح...»^(١).

ثم يتحدث عن أصل أهلها فيقول: «وأهلها الساكنون بها من قبيل السودان، يعرفون بالبجاة، ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها... وهذه الفرقة من السودان المذكورين أضل من الأنعام سبيلا، وأقل عقولا....»^(٢).

وراعى ابن جبير الذوق السائد في عصره - أحيانا - فسلك في مقدمات وصفه للمدن والمواضع الأسلوب المسجوع (الوسطي)، فالتزم فيه السجع القصير والمتوسط، واستخدم فيه المحسنات البديعية مثل الازدواج، والجناس، والطباق، والاقْتباس والتضمين، وأكثر فيه من حشد الصور البيانية كالتشابه والاستعارات والكنايات ولا سيما الاستعارات المكنية التي تجسم المعاني، وتشخص الجمادات في صور حية تحس وتعقل، ومن أمثلة ذلك قوله في وصف مدينة دمشق: «جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلال سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه (عليهما الصلاة والسلام) منها إلى ربوة ذات قرار ومعين، ظل ظليل، وماء سلسبيل... قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر...»^(٣) وقد أعجب الباحثون المحدثون بهذه الرحلة،

(١) رحلة ابن جبير: ص ٤٧-٤٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٨-٤٩.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٣٤-٢٣٥.

فوصفها الدكتور عثمان موافي بأنها « فن أدبي رائع، جمع فيه كاتبه بين الوصف وبين الحكاية أو السرد»^(١). وفي الحقيقة إن هذه الرحلة – كما وصفها كراتشكوفسكي – تعتبر « ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي»^(٢) فهي تجمع بين طرافة الموضوع، وتشويقه، ووضوح الأفكار، وترابطها، ودقة الملاحظة، والأمانة في نقل الحقائق، والصدق في الرواية، والبراعة في الوصف، ودقته وشموله، وجمال الأسلوب وبلاغته.

كما أصبحت مصدراً أساسياً من المصادر التاريخية والاجتماعية لبعض المجتمعات الإسلامية في المشرق التي زارها المؤلف في هذه الرحلة.

وكان ياقوت الحموي، أديبا كبيرا كثير الأسفار والرحلات، وجغرافياً واسع الثقافة، فألف كتاب «معجم البلدان» الذي يعد أضخم كتاب في الأدب الجغرافي، وفي جغرافية البلدان ووصفها، وقد قرن فيه وصف البلدان والمواضع من نواحي الجغرافية الفلكية والوصفية واللغوية والبشرية والتاريخية بالحضارة والدين والأدب، فجاء هذا المعجم – كما يقول – كراتشكوفسكي: «أفضل مصنف من نوعه في العصور الوسطى»^(٣) إذ لا يزال حتى الآن «يخدم غرضه، ويلعب دوره كمرجع موثوق به مما يقف برهاناً ساطعاً على أهميته التي لا تضارع»^(٤).

ويعد ياقوت أشهر مؤلف في الأدب الجغرافي في عصره كما يعد كتابه مصدراً أساسياً من مصادر البحث.

وألف عبداللطيف البغدادي كتاب «الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر» وقد استهله بمقدمة قصيرة، ثم جعله في مقالتين:-

(١) عثمان موافي: لون من أدب الرحلات: ص ١٨.

(٢) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي: ترجمة صلاح الدين هاشم: القسم الأول: ص ٣٠١.

(٣) المصدر السابق: ق ١: ص ٣٣٥.

(٤) المصدر السابق: ق ١: ص ٢٣٤.

الأولى: تحدث فيها عن خواص مصر العامة، وعمما تختص به من النبات، والحيوان، والآثار القديمة، وغرائب الأبنية والسفن، وغرائب الأطعمة.

والثانية: وصف فيها النيل وزيادته، ثم وصف القحط الشديد، والمجاعة المروعة، والأوبئة الفتاكة التي حلت بمصر في سنتي ٥٩٧ و٥٩٨هـ، ثم قدم وصفاً حياً لمشاهد اختطاف الأطفال والكبار وأكل لحومهم، والتغريب بالأطباء بحجة عيادة المرضى ثم محاولة الانقضاء عليهم وأكل لحومهم، وإحراق المحرمين الذين ثبتت عليهم تهم أكل لحوم البشر بأسلوب هادئ تغطي عليه النزعة العلمية.

ومن أمثلة ذلك قوله في وصف الأهرام: «وهذه الأهرام مبنية بحجارة جافية يكون طول الحجر منها ما بين عشرة أذرع إلى عشرين ذراعاً وسمكه ما بين ذراعين إلى ثلاثة، وعرضه نحو ذلك، والعجب كل العجب في وضع الحجر على الحجر بهندام ليس في الإمكان أصح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل إبرة، ولا خلل شعرة، وبينهما طين كأنه الورقة لا أدري ما صنفه ولا ما هو، وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذي لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه...»^(١).

وقوله في وصف أكل لحوم البشر في مصر في أثناء المجاعة التي حلت بها سنة ٥٩٧هـ: «... ورأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد أحضر إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما، ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فأكل وبقي قفصاً كما يفعل الطباقون بالغنم، ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته، ولذلك تطلبه بكل حيلة كل من آثر الاطلاع على علم التشريح...»^(٢).

ولا يزال هذا الكتاب – كما يقول – كراتشكوفسكي «محتفظاً بقيمته

(١) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار: ص ٤٧-٤٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٨٥-٨٦.

كوثيقة إنسانية، وهو مهم ليس فقط من وجهة النظر الجغرافية الصرفة بل كوصف للأحوال التاريخية والاجتماعية لعصره، ناهيك عما يحفل به من مسائل علمية متنوعة»^(١).

وهو يمتاز بوضوح الأفكار وترابطها ودقتها، وبالأمانة في نقل الحقائق، والصدق في رواية مشاهداته، والدقة في الوصف، وسهولة الأسلوب وبساطته، وبعده عن الغرابة والغموض والصنعة البديعية المتكلفة، كما أن خياله قريب، وصوره مستمدة من ثقافته، وواقع بيئته ومشاهداته، وعواطفه هادئة حتى أنه يقدم المشاهد المفجعة – كما هي – بأسلوب العالم والطبيب الهادئ.

المجاميع الأدبية:

ألف بعض الأدباء، مجاميع أدبية بأساليب بليغة، تحدثوا في بعضها عن الأدباء وحياتهم ومؤلفاتهم وأدبهم نظماً ونثراً، وتحدثوا في بعضها الآخر عن الموضوعات الأدبية، وقد كتب بعضها بأسلوب مسجوع، وكتب بعضها الآخر بأسلوب مرسل خال من التكلف والتصنع.

فقد ألف أسامة بن منقذ عدة كتب بأسلوب مرسل سهل بسيط خال من الصنعة البديعية والتكلف مثل كتاب «العصا» الذي جمع فيه مختارات من الشعر والنثر التي ذكر فيها أصحابها العصا، أو بعض المعاني المتصلة بها، واستهله بالحديث عن عصا موسى عليه الصلاة والسلام ثم عن عصا سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، ومن أمثلة نشره في هذا الكتاب قوله يصف قراءة الفرخ لكتبهم عند قبور الأنبياء: «... زرت قبر يحيى بن زكريا – عليهما الصلاة والسلام – بقرية يقال لها سبسطية من أعمال نابلس، فلما صليت خرجت إلى ساحة بين يدي الموضع الذي فيه القبر محوط عليها. وإذا بباب مردود ففتحته ودخلت، وإذا كنيسة فيها نحو من عشرة شيوخ رؤوسهم كأنها القطن المندوف، وقد استقبلوا الشرق، وفي صدورهم عصي في رؤوسها عوارض معوجة على قدر صدر الرجل منهم، وهم

(١) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي: ق ١: ص ٣٤٦.

معتمدون عليها، وشيخ يقرأ بين أيديهم، فرأيت منظرا يرق له القلب...»^(١).

وكتاب «لباب الآداب» الذي نهج في تبويبه منهج التأليف القديمة، ككتاب «الأمالي» لأبي علي القالي^(٢) وغيره، وهو يقع في سبعة أبواب هي: الوصايا^(٣)، والسياسة^(٤)، والكرم^(٥) والشجاعة^(٦)، وباب الآداب الذي اشتمل على خمسة عشر فصلاً^(٧)، وباب البلاغة، وهو من أطول الأبواب وأمتعها إذ اشتمل على مجموعة من الأحاديث النبوية، وكلام الصحابة، ومحاسن الشعر والنثر في المديح، وبلغ التشبيه، ومشى النساء والخفر، والشيب، والاعتذار، والعتاب، والرثاء، والغزل^(٨)، وباب الحكمة، وقد ضمنه حكماً لحكام اليونان والفرس والهنود وغيرهم^(٩). ومن أمثلة ما جاء فيه في باب الحكمة: «... احذر مؤاخاة من يجعلك أكثر باله، ويؤثر أن لا يخفى عليه شيء من أمرك، فإنه يتعبك ويأسرك، وليكن صديقك بمنزلة الغصن من الشجرة، ينجذب معك وفي يدك، فإذا خليته رجع إلى موضعه من الصلة وحسن المحافظة، ولم يناقشك المودة ويجعل ذلك سبباً إلى القطيعة...»^(١٠) ولعل هذا الكتاب من أجل الكتب الأدبية عند العرب لما اشتمل عليه من مختارات أدبية حفلت بالقيم الرفيعة، والمثل

(١) أسامة بن منقذ: العصا: ص ٣٢٦-٣٢٧.

(٢) هو إسماعيل بن القاسم، ولد في مناز جرد بديار بكر، سنة (٢٨٨هـ/٩٠٠م)، وفيها نشأ وترعرع، ثم انتقل إلى بغداد، ثم ارتحل منها إلى الأندلس سنة (٣٢٨هـ/٩٣٩م)، وأقام بقرطبة حتى توفي سنة (٣٥٦هـ/٩٦٦م)، وله مؤلفات عديدة منها: «الأمالي» و«الإبل وتاجها»، و«البارع في اللغة» وغيرها (ياقوت الحموي: معجم الأدباء: ج ٧: ص ٢٥-٣٣).

(٣) أسامة بن منقذ: لباب الآداب: ص ١-٣٢.

(٤) المصدر السابق: ص ٣٣-٧٥.

(٥) المصدر السابق: ص ٧٦-١٤٧.

(٦) المصدر السابق: ص ١٤٨-٢٢٦.

(٧) المصدر السابق: ص ٢٢٧-٣٢٧.

(٨) المصدر السابق: ص ٣٢٨-٤٢٠.

(٩) المصدر السابق: ص ٤٢٠-٤٦٨.

(١٠) المصدر السابق: ص ٤٦٠.

العليا عند العرب والمسلمين وغيرهم، وصيغت بأساليب أدبية موجزة وبلغية .

وكتاب « المنازل والديار » الذي ألفه إثر زيارته لموطنه شيزر بعد ما ضربتها الزلازل المروعة في سنة (١١٥٧هـ / ١١٥٧م) وقلبت عاليها سافلها، وأخت على جل قومه بني منقذ، فجمع فيه كثيراً مما قاله الشعراء والناثرون في البكاء على المنازل والديار والأطلال وراثتها، لعله يجد في هذا الأدب الباكي وترديده ما يسري به عن نفسه المتلوعة لانقراض أهله ودمار وطنه^(١)، وذلك خلافاً لما جاء في دائرة المعارف الإسلامية، من أن هذا الكتاب « ترجمة كتبها المؤلف عن نفسه، بعد أن اجتاحت الزلزلة أهله وديارهم . . . »^(٢) وقد جعله في جزأين: الأول^(٣) يتألف من عشرة فصول هي: ذكر المنازل، والديار، والمغاني، والأطلال، والربيع، والدمن، والرسم، والآثار، والمسكن والمعاهد والأعلام والعرصات، والأرض .

والثاني يتكون من ستة فصول^(٤)، هي: ذكر الأوطان، والمدن، والبلاد، والدار والمسكن والبيت والمعاهد والأعلام، والعرصات، وبكاء الأهل والإخوان، وقد عقد أسامة لكل معنى من معاني الموضوع المختلفة فصلاً خاصاً، أورد فيه قليلاً من النثر، وكثيراً من شعر الجاهليين ومن تلاهم حتى عصره، ولم يورد نصاً مما اختاره إلا وجاء فيه لفظ مما عنون به الفصل .

ومن أمثلة ذلك قوله مبرراً لإجاده للرتاء أكثر من غيره من الشعراء: « . . . قلت (أي أسامة): لي على من تقدم ذكره من الشعراء أفضل المزية، إذ كنت دونهم صاحب الرزية، فكان شعري أولى أن يقدم على أشعارهم، وإن قصرت بي البلاغة عن اقتفاء آثارهم، لكن للمتقدم السابق، وهو بالتقدمة أولى وأحق، وإن كنت وهم كما قال ذر لأبيه: يا أبة! مالك إذا تكلمت أبكيت الناس، وإذا تكلم غيرك

(١) أسامة بن منقذ: مقدمة المنازل والديار: ص ٣-٤ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ترجمة محمد ثابت الفندي ورفاقه: المجلد الثاني: ص ٨٠: نقلاً عن وصف

كراتشكوفسكي لمخطوط هذا الكتاب في (Zapiski).

(٣) أسامة بن منقذ: المنازل والديار: ج ١: ص ١-٣٦٤ .

(٤) أسامة بن منقذ: المنازل والديار: ج ٢: ص ١-٣٣٨ .

لم يبكهم؟! قال: يا بني ليست النائحة المستأجرة كالثكلي...»^(١).

ويعد هذا الكتاب من المؤلفات النادرة في موضوعه.

وألف علي بن ظافر الأزدي كتاب «بدائع البدائه» الذي ضمنه ما سمع به، وما وقع له من حكايات البدائه، وقد رتبته «على ترتيب الأعصار، إلا ما يقتضي تقديمه فرط مشابهة ومشاكله، وزيادة ومقاربة ومماثلة»^(٢)، وقد كتبه المؤلف بأسلوب أنيق مسجوع، وهو يصفه قائلاً: «.. وقد ضمنت هذا الكتاب البديع النظم، الغريب الاسم، ما وقع لي إلى هذا التاريخ من حكايات البدائه، وكل ما فيه من الحكايات المسجوعة، فخطري جالب دره، وحالب دره، وساكب قطره، إلا ما استنبت به، وقد جاء علالة السائر، وأنس المسامر، وملهاة الساهر...»^(٣).

وألف ياقوت الحموي كتاب «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» الذي اشتهر بـ «معجم الأديب» وقد أشار المؤلف في مقدمته إلى من عني بتراجمهم فيه، فقال: «وجمعت في هذا الكتاب ما وقع لي من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين، والإخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتّاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة، وكل من صنف في الأدب تصنيفاً، أو جمع فيه تأليفاً...»^(٤).

ولكنه أهمل معظم تراجم الشعراء الذين لم يعرفوا سوى بقول الشعر فقط، ولم يعرفوا إلى جانبه بالتصنيف والتأليف، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه قد صنف كتاباً مستقلاً في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء^(٥) ولكن هذا الكتاب فقد وبقي «معجم الأديب».

(١) أسامة بن منقذ: المنازل والديار: ج ١: ص ٥٢.

(٢) علي بن ظافر: بدائع البدائه: ص ٦.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٠٧.

(٤) ياقوت الحموي: معجم الأديب: ج ١: ص ٤٨-٤٩.

(٥) المصدر السابق: ج ١: ص ٥٠.

وقد رتب المؤلف كتابه على حروف المعجم، وهو أضحخ معجم للأدباء على اختلاف اختصاصاتهم حتى ذلك العصر، وأهمها وأكثرها تداولاً.

ويحوي هذا الكتاب كثيراً من المعارف عن الأدباء، فهو يذكر تواريخ ولاداتهم، وتواريخ وفياتهم وطرائف أخبارهم وظروف حياتهم، وأسفارهم، والكتب التي صنفها كل منهم، وشيئاً من نثرهم ونظمهم.

وقد اعتمد في مقدمة كتابه على الأسلوب المسجع الحافل بالصنعة البديعية والصور البيانية، ومنها قوله في بيان حافزه على تأليف هذا الكتاب «... وبعد فما زلت مذغذيت بغرام الأدب، وألهمت حب العلم والطلب، مشغولاً بأخبار العلماء متطلعاً إلى أنباء الأدباء، أسائل عن أحوالهم، وأبحث عن نكت أقوالهم، بحث المغرم الصب، والمحب عن الحب، وأطوف على مصنف فيهم يشفي الغليل، ويداوي لوعة العليل، فما وجدت في ذلك تصنيفاً شافياً، ولا تأليفاً كافياً...»^(١).

أما في بقية الكتاب، فلم يلتزم بالأسلوب المسجوع، وانطلق على سجيته في رواية أخبارهم ونظمهم ونثرهم، ومن ذلك قوله في التحاق العماد الكاتب بخدمة السلطان صلاح الدين: «... ثم لزم العماد من ذلك اليوم باب السلطان صلاح الدين، ينزل بنزوله، ويرحل برحيله، ولم يغش مجالسه، ملازماً لخدمته حتى قربه واستكتبه، واعتمد عليه، فتصدر وزاحم الوزراء وأعيان الدولة، وعلا قدره، وطار صيته، وكان إذا انقطع القاضي الفاضل عن الديوان ناب عنه في النظر عليه، وألقى إليه السلطان مقاليدته، وركن إليه بأسراره، فتقدم الأعيان، وأشير إليه بالبنان، وكان بينه وبين القاضي الفاضل مراسلات ومحاورات، فمن ذلك أنه لقي القاضي الفاضل يوماً، وهو راكب على فرس، فقال له سر فلاكبابك الفرس، فقال له الفاضل: دام علا العماد، وكلا القولين يقرأ عكساً وطرداً...»^(٢).

(١) ياقوت: معجم الأدباء: مقدمة الجزء الأول: ص ٤٥-٤٦.

(٢) المصدر السابق: ج ١٩: ص ١٨، وهذا الضرب من البديع يسمى «مقلوب الكل» أو «ما لا يستحيل بالانعكاس». (د. أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ج ٣: ص ١٧٩).

وألف العماد الكاتب كتاباً ضخماً ترجم فيه لعدد من شعراء القرن الخامس، ولعدد ضخم من شعراء القرن السادس الهجري، وأورد فيه - غالباً - بعض أخبارهم، وشيئاً من أشعارهم، ويمتاز هذا الكتاب بأنه يكاد يشمل جل أقطار العالم الإسلامي - آنذاك - كما أن مؤلفه لم يكتف بما ورد في دواوين الشعراء الذين ترجم لهم، بل حاول الاتصال المباشر بعدد منهم فالتقى بهم وأخذ عنهم، وراسل عدداً آخر منهم وحصل منه على ما يريد من معلومات وأشعار، كما أنه لم يقف عند ذكر المشهورين من الشعراء، بل احتفى بكثير من المغمورين الذين لم يلتفت إليهم سواه، مما جعل هذا الكتاب من أمهات الكتب في موضوعه، ومصدراً أصيلاً من مصادر الشعر والشعراء في القرن السادس الهجري وقد جعله المؤلف في أربعة أقسام:

الأول: للعراق^(١).

الثاني: للعجم وخراسان.

والثالث: للشام، واليمن وتهامة والحجاز^(٢).

والرابع: لمصر، وصقلية والمغرب والأندلس^(٣).

وقد التزم العماد في هذا المؤلف بأسلوبه المسجع الذي لم يحد عنه في أي من كتبه. ومن ذلك قوله عن الأديب الغزي^(٤): «... مولده غزة الشام، وانتقل

(١) قام الأستاذان محمد بهجة الأثري، وجميل سعيد بتحقيق هذا القسم بتكليف من المجمع العلمي العراقي.

(٢) قام الدكتور شكري فيصل بتحقيق هذا القسم.

(٣) قام الأساتذة: أحمد أمين وشوقي ضيف، وإحسان عباس بتحقيق ما يخص شعراء مصر فقط. وقام الأستاذان عمر الدسوقي، وعلي عبد العظيم بتحقيق ما يخص الشعراء في صقلية والمغرب والأندلس. ثم قام الأستاذ آذرتاش أذرنوس أيضاً بتحقيق هذا القسم ثم نقحه وزاد عليه الأساتذة محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني بن الحاج يحيى.

(٤) هو أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن محمد الكلبي ثم الأشهب المعروف بالغزي، ولد بغزة سنة (٤٤١هـ)، ثم تنقل في المشرق الإسلامي، وتوفي في بلخ سنة ٥٢٤هـ (العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام. ج ١: ص ٧٥-٣، وابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ١: ص ٥٧-٦٢).

إلى العراق وإلى خراسان وأصفهان وكرمان وفارس وخوزستان، وطال عمره، وراج
سعر شعره، وماج بحرف فكره، وأتى بكل معنى مخترع، ونظم مبتدع، وحكمة
محكمة النسج، وفقرة واضحة النهج، وكلام أحلى من منطق الحسنة، وأعلى من
منطقة الجوزاء، فكم له من قصائد كالفرائد، وقلائد كعقود الخرائد، وغرر
حسان، ودرر وجمان....»^(١).

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج ١: ص ٣.